الدكتورة ناديا خوست

كُتّاب وَمَواقف

دراسة

www.alkottob.com

منشورات اتحاد الكتاب العرب

دراسة تكشف عن عمق في النظرة واصالة في التفكير ووعي للأفق الانساني لكل عمل ادبي.

وتؤثر هذه الدراسات أو معظمها ان تكون قراءات او تفاعلات مع النص ، تكشف عن النصوص المدروسة باسلوب وعبارة سليمة ومثيرة .

www.alkottob.com

الدكتورة ناديا خوست

الكتّاب ومواقف

دراسة

منشورات اتحاد الكتّاب العرب

www.alkottob.com

حقوق الطبع والاقتباس والترجمة
محفوظة لاتحاد الكتاب العرب

حصرياً
نشر لأول مرة على الإنترنيت
من أعمال
Passerby_intime@yahoo.com
مرهف

الإشراف الفني: زهير الحمو

منشورات اتحاد الكتاب العرب

دمشق ـ ١٩٨٣

www.alkottob.com

مَلامح واقعيّة

في قصص زكريّا تامر

تحكي قصص زكريا تامر عن دمشق . تنغمس في أعماقها المظلمة ، وتتطلع منها الى النجوم . تحمل العنف الجارح ، والقسوة المبللة بالدم . لاينتصر العدل في الصراع الضاري فيها . لكن الحلم بالرحابة والحرية لايموت . كأنما السماء تتحرك فوق الانسان . تهرب ، ولاتغيب .

تتميز القصص ، عامة ، بصراع بين قطبين . يحمل فيه الجانب القمعي وجهاً أخلاقياً ، أووجهاً سياسياً . وتعبر من خلال شكل حديث ، ومادة شعبية عادية ، عن قيم البحث عن الحرية ، وحب المرأة والطبيعة والعدالة ، وأحلام الانسان المهزومة .

سنتحدث عن مادة القصص ، والصراع والقيم فيها . عن المواجهة بين الانسان وبين الأخلاق القديمة ، بين الانسان وبين السلطة : القمع الأخلاقي ، والقمع السياسي . وعن موقف الكاتب من المرأة والفقراء . وعن خصائصه الفنية ، واقعيته الخاصة ، ثم نتبين موقعه في بعض النقد السوري .

يبدأ الكاتب من عنصر أوحادث واقعي ، عادي . اختطاف امرأة في الغوطة ، دخول لص الى بيت ، حرب ، انتحار ، قتل فتاة بخنجر أخيها « دفاعاً عن الشرف » ، اعتداء كهل على صبية ، غضب حارة شعبية على

www.alkottob.com

بنت تسفر وتتعلم ، استغلال ساحر وحدة امرأة . يأخذ الكاتب وجه الحادثة المعبر . يعصر الواقع . ويعطي الرمز وظيفة الكشف . وعندما ينزل الأبطال العرب القدامى من تماثيلهم في التاريخ ، يجعلهم يمشون على الأرض المعاصرة ويكشفونها .

هاهو الواقع الشرقي منبوشاً ، يضيؤه الكاتب من موقع الارتباط به ، والشعور بدفء علاقاته . ومن موقع الرغبة في الهرب منه . يكشف ثقله ، جوه الخانق ، تعسفه ، سفكه الحرية . ولا يسامحه .ولكن الى أين ؟ يعود البدوي الى البيت الشعبي القديم . لكن الراحل الى البحر يشقى ويضيع . تلخيص وضع عام : ذهب الماضي المرفوض . والحاضر غير مقبول . والمستقبل ناء .

تفوح في القصص رائحة دمشق ، وحاراتها ، وغوطتها . شمسها ورطوبتها . لكنها ليست فولكورا سياحياً . لاتمر في استعراض . بل في تمزق . في صراع تراجيدي . في لحظة أزمة حادة ، خانقة .

المدينة القديمة رجولة وياسمين . سماء عميقة وفقر . يعود اليها البدوي العودة الى الدفء والأصالة ، من غربته في الأحياء الجديدة . هرباً من التجار الى الفقراء . لكن تحت لون الياسمين ، واسترخاء الشرق على تقاليد الشرف ، أعماق المدينة السوداء . العنف والقتل الظالم فيها . كرامتها المزيفة ، وعضلاتها المنفوخة ، وصوتها المرتفع المتبجح . شرفها الذي يناقض الحرية والحب والعقل : هاهي عداوة الحارة الشعبية من يخرج عليها ، كل جديد متطور ، ونحن في أيام السيوف والسبي .

تحدث المواجهة بين النقيضين . بين الحب وبين القسر . بين الحلم وبين الواقع المتعسف . ويمد الاتقان الفني ، والايحاء ، أفق هذه المواجهة

www.alkottob.com

خارج الحارة الشعبية والواقع المحدد ، ويكسبها قيمة الصراع الكبير بين الضوء وبين الظلام . يؤهلها لأن تعيش . في جانبٍ انسان يحلم بالحب ، والصفاء . امرأة ونجوم وياسمين . وفي الجانب الآخر شيوخ ، وسلطة ، وعنف ، وعرف . الياسمين والشجر ، في مواجهة السلاح والعنف والشرطة .

وبمقدار صفاء أحلام الانسان ، يكون عنف الاستشهاد . ويأتي القتل ، أو الهزيمة ، لينشر الحزن على الحياة الفقيرة بالحب والنجوم والحرية .

يصدمنا في هذا الصراع ، مد لحظة الفجيعة . تفاصيل الموت والعذاب ، وتدفق الدم . ثقل بلاطة القبر . تريد أن تغمض عينيك وتصرخ : كفى ! لكنك تعرف أن الفن كشف أمامك واقعا عندما كثفه . وتعرف أنك لن تنساه . وهذه التفاصيل ، غالباً ، مبررة لها في القصة مكانها ، وهدفها . تأخذ معنى الحزن على الانسان ، وتزيد من حدة التفاوت بين آماله وبين مصيره .

يستخرج الكاتب من البيئة الشعبية مفاهيمها الشائعة . ويدخلها لابسة كلماتها الجاهزة ، الى أكثر القصص صنعة وحداثة وجمالاً . « عائلتنا شريفة ولا وجود فيها لبنات يتكلمن مع رجال . » « قتلني أخي وقال ان العار يجب أن يمحى » . (الحفرة) . وطريقة القتل شعبية . نعرفها من زمان ، من حكايا الناس : « ولف شعرها الطويل حول رسغه وانهال عليها طعنا بسكينه بينما كانت تغمغم بصوت خفيض متوسل : أخي أخي » أخذ الكاتب الصورة المتداولة . وجهها سكيناً الى قلب الشرق . فبدت تفاهة الشرف الذي يجعل امرأة ورجلاً غصنين يابسين حزينين .

لكن العين التي يكاد يغمضها الموت لاتنسى زرقة السماء. تمد نظرتها الى

www.alkottob.com

الحياة . في لحظة الهزيمة ، والحزن الأقصى ، تطل بقعة السماء ، تمر النسمة والنجوم فتزيد من حدة القسوة والموت ، وتزيد من قوة الحلم بالحياة التي كان يمكن أن تعاش .

(الحفرة) تأخر الشرق ، في أسلوب حديث ، مركز ، شاعري . واستغاثة الانسان ، تتراكم قصة بعد قصة ، وتنادي الناس . قد تجدهم نياما ، أو تكون احتجاج الحزن الأخير . لكنها تهز الضمير ، وتطلب الصحو .

قد تتم المواجهة بين الحارة القديمة والخارج على أخلاقها ، ببساطة عادية . يلتقي شاب عائد الى بيته في الليل ، برجلين ينتظرانه على باب الحارة . ويحمل اللقاء العادي تحدي الرجولة القديمة ، بكلماتها الجاهزة ، ومفاهيمها الشعبية ، للشاب الخارج عليها .

يمشي غسان حاملاً كتاباً . وعندما يصل إلى أول الحارة . « ينصت تواقا الى سماع صرخة تنبثق من البيوت الطينية منادية الشمس والعاصفة . » شاب يحب القراءة ، يفكر ويحلم ، لايجب أن يضرب أحدا . لايحمل خنجرا . تخطت الرجولة عنده عضلاتها القديمة وأصبحت تفكيرا ومطالعة . وأخته مثله « تمشي مرفوعة الرأس » . سافرة .

تشبيه الرجل ، عادة ، بالمرأة اهانة له . احتقار له . احتقار الشرق للمرأة . يقول الرجلان : « نحن رجال اما هو فامرأة » « انه امرأة ولوكان رجلا لما سكت » « أنا أعرفهم جيدا هؤلاء الذين يلبسون البنطلونات . لهم شوارب ولكن بنت البيت أكثر رجولة منهم . »

مدان هذا السواد في الشرق . لايرى المرأة غير لحم . ويخفيها لحما تحت

www.alkottob.com

ملاءة . ترك الكـاتـب للرجـلين هذا المـوقف من المـرأة بصمـة تدل على التخلف ، فالمرأة عنده ، ممزوجة بالهواء والصفاء والشمس .

يقتل غسان بطريقة شعبية . فكما يكون الانتحار بالكاز ، يكون القتل بالذبح . ولانكون عند ذاك حياديين . اكتشفنا العنف تحت لون الياسمين ، والجهـل والـوحشيـة تحت الرجولة المزيفة . كشف الأدب ولم يخبىء . أليست هذه وظيفته الواعية !

يحدث الخـروج على الحـارة ، نحـو العلم ، في صورة أخـرى . بطلته فتـاة تسفـر وتـذهب الى الجامعة . والعقاب مماثل . لايفيد الفتاة في مواجهتها التخلف أن يكون أهلها الى جانبها . فعندما يدافع عنها أخوها يذبح . وهنا أيضـا نقـابل النظرة المتعسفة الى المرأة : « المرأة مخلوق فاسد واذا أفلت زمامها عاثت فسادا وخرابا . » تابع . ملحق . ليست له صفة الاستقلال . ليس ندا . ولا حرا . يرفع رجال الحارة الحماية عن الفتاة ، ويذكرونها بانها متعة قد تؤخذ بالقوة .

في هذا الصـراع ، كثـيرا مايـتردد شبح الشيخ ، مدافعاً عن القيم القديمة يمنع الحب ، ويحرض على العقاب . قوة كابحة وسلطة متعسفة .

يقـول الشيـخ لرجـال الحـارة ، محرضـا على القتـل : « ياأولادي واخـواني ، السـاكت عن المنكـر كمرتكب المنكر ، فاعملوا ماترونه صوابا ،واللّه الموفق . »

وبعد أن قتل الرجال المدافعون عن شرف الحارة أخا الفتاة « اصطف رجال حارة السعدي وراء الشيخ محمد وأدوا صلاة العشاء بخشوع بينما كانت عائلة الحلبي ترتدي ثياب الحداد . »

ويقول شيخ حارة السعدى للمصلين ، مباركا الفقر والذل : « ان الله هو الـذي خلق الـرجال والنساء والاطفال والطيور والقطط والاسماك والغيوم ،

www.alkottob.com

وهـو الـذي خلق أيضـا عبـاده الفقـراء من تراب ، فيهـز الـرجـال رؤ وسهم موافقين ، فوجوههم تشبه ترابا لم تهطل فوقه قطرة مطر ، وبيوتهم من تراب ، ويوم يموتون يدفنون في التراب . » هنا ، لم يحرض الشيخ على القتل ، لكنه سكت عليه . بارك غسل العار بالدم . والشرف ليس حق الفتاة في أن تحب ، أو في ألا تحب . وليس الشـرف اعـتراضـا على الظلم في وطن ، ولا على قتل انسان ، ولا مقاومة احتلال .

يأتي القتـل فادحـا ، ظالمـا ، في مقارنته بالحب الطري . تقطع سكين ماهـو بشـري ، انسـاني ، طبيعي . ويبـدو الوضع غير معقول ، غير مبرر . وأي سبب يبرر قتل قطعة « الفاكهة التي تحلم بها كل الاشجار » ، ذات الشعر الأسود ، خيمة الأمان .

تحدث المـواجهـة على أوتـار مختلفـة ، بنغمات متعددة . مناسبة لموقف الـرجـل من المـرأة ، وتنغيمات العرف . في « موت الشعر الأسود » ليس الحب الممنـوع سبب القتـل . لاتهجـر فطمـة زوجهـا . ولاتحب رجـلا آخر . لكنها ليست في قبضته . لاتشعره بأنه سيدها .

موقف قديم لرجولة كلاسيكية . في جوفني ، مصنوع . « ولقد أحب مصطفى فطمة وشعرها ، ولكنه كان يرى في منامه حلما واحدا يركض فيه تحت مطر غزير دون أن تبلله قطرةُ ما . يريد أن تقول له فطمة : « أحبك وأموت لو هجـرتني » . ولا تقـول ذلـك . فيؤذيها . وتبكي . لكنها شابة ، لاتقف عند الحـزن . يأتي الـزوج الى أخيهـا ، كما يحدث في المواقف التي تبدأ بها قصص الثأر للشرف ، ويقول للأخ : « قبل أن تقعد كعنتر بين الرجال ، اذهب وخذ اختك من بيتي . » يقتل الأخ أخته . لايقف أحد في وجه الرجل عندما يغسل العار . ولا يجير انسان فطمة التي تركض في الحارة مستغيثة .

www.alkottob.com

في القصر العدلي ، وفي سجلات الشرطة قصص مشابهة . تذكر بدوستويفسكي الذي كان يأخذ من واقع الجريمة حقيقة في الحياة . وينفض ، في شكل أدبي ، الظلم الذي ينزل بالانسان . ليس ظلم المجتمع الطبقي فقط ، بل ظلم القتامة والتخلف التي تسد قلوب الفقراء وتجعلهم يمارسون اهانة اخوتهم وقتلهم .

في قصة قصيرة ، مركزة ، قدم الكاتب مشكلة ، وشخصيات واضحة . امرأة مرحة صبية ، وأخ ، وزوج . شخصيات الثأر التقليدية . وهي ، مثل سابقاتها ، يمكن أن تكون مناقشة كبيرة لمفهوم الشرف والرجولة القديم . من موقع متقدم ، انساني ، يرفض تماثيل الشرف الميتة .

المرأة :

من هذه الرؤية القديمة للمرأة والشرف والحب ، ننتقل الى مفهوم الكاتب عنها . ليست المرأة دما مباحاً للاخ . بل حلما دافئا مباحا للرجل . المرأة نغمة دائمة . ضرورية ، هامة . ملازمة لاحلام الرجل بالامتلاء والصفاء . مرتبطة بالطبيعة والجمال .

عند الرجل شوق دائم لاحتواء المرأة ، للشعور بملمسها على جلده . ظمأ الى الاحساس بأن « ثمة مخلوقاً حياً لصقه يتنفس ويلهث » . « شديد الحنين لأن يحس برحلة الدم في الشرايين خلف بشرتها . » يتمنى عباس « ان يتحول الى هواء تستنشقه ليلى ليستقر في صميم كل خلية من خلايا جسمها . « المرأة حلم يمد الرجل ذراعيه نحوه » . « وبدت سميرة لعينيه

www.alkottob.com

وكأنها مرتبطة بصورة ما بالشمس والياسمين الأبيض ، وكانت شديدة الفتنة وكأن رائحة الياسمين قد تكثفت وتجسدت في لحم أبيض حار . »

حساسية الرجل حادة لحظة ملامسة المرأة : « وكانا آنئذ مخلوقين تلاقيا دون كلمات واستسلما لحنان مشوب بنشوة باهرة . وكان لأي حركة ضئيلة تصدر عن جسديهما موسيقى ثملة . وكان شعرها تحت شفتيه ناعما مفعما برائحة النوم . »

تعطي المرأة الشرعية للرجل . « وأصبحت أمنية محمد أن تنظر اليه المرأة وتبتسم له ، ولكن المرأة لم ترمقه بنظرة في أي مرة ، فكان محمد يشعر بأنه جورب عتيق مهمل ، فيتشرد عبر المدينة وقد تحول الى قط هزيل يموء مواء حادا » (حقل البنفسج) .

ينتظرها الرجل لتغني عالمه . « ولقد انتظر طويلا أن تبزغ فوق صحرائه أنثى تهبه الشمس والعطر والنشوة والطمأنينة . » أما اذا لم توجد فالعالم يصبح « قفصا قضبانه من فولاذ » (أرض صلبة صغيرة) . تتمرد الخشونة والجلاقة ، « واستيقظ بدوي في أعماق يوسف ، بدوي جلف مشعث الشعر ، يملك خنجرا مقوس النصل ، ويملك خيمة في صحراء مجدبة ، ولا يملك امرأة . » (البدوي) .

يريد الرجل المرأة مختارة ، في علاقة حرة . لايريدها سبية ، حزينة ، مغلوبة . يرفض محمد أن يأتي الساحر بالمرأة وهي نائمة في سريرها . « أريد أن تكون عيناها مفتوحتين ، تنظران الي بود . أريدها أن تبتسم لي » (حقل البنفسج)

وعندما توجد العلاقة الصحية بالمرأة توجد النجوم والبساتين الخضراء ، وأماني الانسان بالحرية . يوجد الحلم .

www.alkottob.com

تتبادل المرأة والطبيعة الملابس . « كانت سميحة في الأيام القديمة سمكة تحيا في البحار ثم تحولت فيما بعد الى قطرة ماء في غيمة . » (البستان) . تلامس الرجل « عشبا أخضر ، نهرا من النجوم » (الحب) . وتنساب ضحكتها نغمة من أنغام الطبيعة ، يدهش رصدها . « ضحكتها لها جناحا عصفور صغير » (الحب) . « وكأن ضحكتها غيمة بيضاء تعبر سماء صيف أزرق . » (موت الياسمين) . « وتعالت ضحكة المرأة مرة أخرى عذبة خافتة شبيهة بارتجاف جناحي طائر صغير أبيض . « الحفرة » . « فطمة امرأة جميلة ، ضحكتها حديقة خضراء . . » (البدوي) « فارتفعت ضحكتها كغناء فرح صادر عن عصفور صغير » . . يتمنى الرجل أن يبيع « عينيه لأجل ضحكة امرأة »(البدوي) وعندما سيسمع ضحكتها سيتمنى لو يذبح على ركبتيها . . » يقدم أقصى مايقدمه انسان : ضوء العينين والحياة .

لكن هذه المرأة المشتهاة ، المرتبطة بشوق الرجل الى الحياة والدفء لا تدخل في القصص الا عنصرا من عناصر على خلفية اجتماعية واسعة . ولا تأخذ مكان الوطن والمدينة . تبرز القمع الاجتماعي وانسحاق حق الانسان في الحب والحياة . وتكشف ضيق الشرق .

المرأة ، في القصص ، صبية مخطوفة ، معتدى عليها ، مهجورة تحن الى علاقة رجل حتى من خلال عدوان . امرأة وحيدة تبحث عن رجلها ، تحمل ظمأ المرأة المهملة الذي يتجاوز قواعد الشرف العادي الى قربى انسانية من الرجل . نماذج شعبية . ضحية . نلمح المرأة متعلمة خارجة على الحارة . لكن النماذج التي ترتبط بقضية ومناقشة سياسية ، ليست شخصيات نسائية . فالمرأة تتحرك في اطار شعبي لا في اطار سياسي أوفكري . وهي ، غالبا ، ضحية ، سلبية . كما هي في سوادها ، لا في تجاوزه .

www.alkottob.com

الحب :

نوع من ممارسة الحرية . . لقاء اختياري بين اثنين . تبدو الدنيا من خلاله رقيقة ، وجميلة ، ورحبة . يتدفق « الليل الذي يملك ملايين النجوم » الى الطرقات وفي لحظة القرب الحر بين شخصين « احرقت الأرض ثياب الحداد ، وغنى أبناؤ ها للعشب الأخضر ، وانتحر الأعداء ، وتحولت قنابلهم الى ورد أحمر . »

عندما يوجد الحب ينتفض العملاق الاجتماعي . فيفصل المتحابين بالفضيحة أو الموت . ويجعل الهزيمة الفردية ترتدي صفتها العامة وتحمل معنى تخلف الشرق .

ينصب العرف سكين الأخ بين الرغبة الطبيعية وبين التعبير عنها . لذلك يمتزج الحب بالخوف . تنسدل بين المرأة وبين الرجل « سبع ملاءات سوداء » وفي لحظة القرب تهوي الضربة المفاجئة . تتبدد النجوم ، ويتمزق ارتعاش الحقول الخضراء .

لايكاد يوسف يحس بالفتاة « لصقه مبتهجة لاهثة » حتى يسمع وقع أقدام . يذكر العالم بوجوده ، ويهز سلاسله .

« -كنت خائفة من أمي .

-أمك نائمة .

- كنت خائفة .

- ممن .

- لا أعرف . »

يعشش الخوف في القلب ، ويكبح الحركة . يلغي التعبير الحرعن

www.alkottob.com

العواطف . يحذر من العقاب عليها ، ويميتها . جسم المرأة معبود ومقتول في الشرق . مخبأ كتلة مذبوحة ، فقدت حقها بالشمس .

دروب الفقراء :

رغم التخلف في الحي الشعبي ، ووحدته الصارمة في مواجهة الفتي المتجدد ، المتمرد عليه ، فالجذور الدافئة فيه . يحمل البطل ، عادة ، الود له ، لكنه لا يستطيع ان يعيش فيه . يخرج منه . وخارجه ، أيضا لايجد حياته الرحبة .

تلازم الفقراء منازلهم ، معتمة ، دون هواء ، قبو ، غرفة على سطح ، بيت قديم . وهذا المكان الصغير قريب من المرأة والأُمنيات . يفوح فيه الحب والحزن . تدور وتحترق النجوم فوقه . والانسان غريب في عالم شرس ، قاس ، يسحق الأحلام . فأين المفر ؟

أزمة البطل أنه وحيد . يحس بتخلف طبقته . وينسلخ عنها نفسيا . لايمسك المتطور فيها خيطا يصله (رغم تخبط الظواهر) بالمستقبل ، ويعطي البحث وضوحا والحزن نورا . يراها في سكونها ، فيهجرها . لكنه لاينتقل إلى مكان ثابت آخر . ولايلتحق بالاغنياء ، لاخادما راضيا ، ولا ملحقا انتهازيا ، بل يحس بالنفور الدائم من الأغنياء وبالعداوة لهم . خسر ثيابه ومكانه . ويخسر ، أحيانا آفاقه ، فيتمزق بحقده على الأغنياء . تعبر عواطفه نحوهم عن حقد طبقي ، لا عن وعي متنور طبقي . « سيحرق منازل الأغنياء ، ويأكل أعين أطفالهم ويحرق لحم نسائهم . » « اسمعي . . . سيأتي مرض غريب لن يصيب سوى الاغنياء . سيموت الاغنياء كلهم في يوم واحد

www.alkottob.com

ويدفنون في القبور ويتركون بيوتهم خالية ، فيقبل الفقراء ويسكنون فيها ، ونحن من هؤلاء الفقراء . » (النار والماء)

لعل مايبعد سميرة عن يوسف أنها ليست من الفقراء . تبدو حياة يوسف في الحارة الجديدة ، وحبه الفتاة الغنية ، حادثا عارضا . وهو يعبر من خلال الحب عن انتقامه من الأغنياء . تنتظر الفتاة ، وهي في أقصى القرب منه ، أن يقول لها كلمة ما . لكنه لايقولها وتذهب وهو صامت .

يحس منذ البداية ، خلال شوقه اليها ، بأن كلا منهما على ضفة نهر لايمكن عبوره . وعندما يكون الفرح خيمة ، تفصل بينهما « نافذة لها قضبان ونسيج حديدي » . وعندما يغازلها تكون « خارج القبو واقفة على سطح الارض بثبات وثقة ، مغمورة بالشمس ، تتألق فتية » ويكون هو في الظلام « يغوص في طين خفي قديم . . »

يعرف يوسف أن تأثير أهلها سيزيد عمقا مع الزمن « وحين تكبر ستتبدل وتطلب رجلا ذا ثروة » .

راقب يوسف ، من خلال تجربته مع صاحب المعمل ، كيف يأكل وضع الشخص الطبقي طباعه . كيف تأكل طبقته انسانيته . وهذا يجعله يجفل . لكن البعد الطبقي ، بينه وبين سميرة . وكأن انتقامه ، من خلالها ، موجه الى الطبقة بكاملها . هكذا هجر الحارة تاركا الفتاة لمصيرها . وهو ، بذلك ، لايضع وساما على صدر طبقته . فشكل انتقامه يدل على الحقد ، لا على الوعي . على ضيق ساحة الرؤية . انتقام من انسان هو ايضا ضحية تخلف الطبقة وتزمتها ورؤيتها المشوهة للشرف .

يعود يوسف الى حارته ، رغم بعده عن أبيه السلطان ، وأمه التي تحب الأخلاق الحميدة . يعرف حقيقة الحارة ، ولونها الآخر القاتم . لكنه يعود .

www.alkottob.com

ويحس « وهو يمشي بين البيوت الطينية أنه يستنشق بعد مرض طويل هواء حقيقيا ممتزجا بضياء الشمس ، وبدا له الأمس مجرد حلم أسود بدده الصباح . . »

هل وجد بهذه العودة الحل . لا . في يوم الحزن ، يبحث الرجل عن أمه ، عن أصدقائه القدامى ، عن بيته القديم وحارته القديمة . عندما لاتقوده خطواته خارج الحياة القديمة الى الري ، وتغرقه بمشاكلها الجديدة وصورها القاتمة . لايستطيع ان يلمس الدفء في أمل مجرد ، ومستقبل بعيد . في تلك اللحظة ، يحتاج دفئا انسانيا مجسدا . هكذا نرى عودته . انها اللجوء الذي نمارسه جميعا ، عندما نرتجف ونبحث عن الأم والجذور . . ليس ذلك حلا ، بل محطة . بقي يوسف في مكانه المتأزم . بقيت التناقضات دون حل . الحياة التي هرب اليها لاتروي التطلع . والحياة الجديدة ليست البديل المطلوب . الانسان ، فردا ، عاجز عن ايجاد حل عام .

يفوح حنين دائم الى حياة مكتملة ، جميلة . الى المدن الغريبة . لكن الرجل لن يرحل اليها . واذا رحل يموت قبل أن يصل اليها ممزقا ، وحزينا . كأن الدب مسدود . « كان يوسف يعلم أنه لن يرحل الى أي مكان ، وسيضيع نهاره في معمل خارج المدينة . وسيتلطخ بالسواد والزيت والعرق . وسيلمس الحديد البارد . ويخضع للغضب الكامن في أصوات الآلات . وستكون عينا صاحب المعمل سوطين قديمين مبتلين بالدم . حلم يوسف مرات عديدة أنه ألقى صاحب المعمل وهو حي في بوتقة مليئة بالحديد المصهور . وحلم بأنه يذبح فطمة . وانتشى بتخيله سماع صرخات حيوان يلتقي فجأة بوجه الموت » (البدوي)

الحقد كبير . والباب مسدود . ماذا يمكن أن يضيء ذلك الحزن ؟ لن

www.alkottob.com

يغير الواقع الموضوعي ، الأمل والخروج من عواطف الفرد الى عواطف المجموعة ، ودمج المصير الفردي بالمصير العام . فنحن لسنا في أيام التغيرات الكبرى الايجابية وربما ، لسنا على بابها . لكن المساهمة بنهوض الانسان نحو الوعي ، نحو اليقظة ، لجعل نشاطهم في منحاه ، وحبهم وانتقامهم وغضبهم مثمرا ، توسع الأمل ، وتثبت الخطوة . ولو كان ذلك من خلال الحزن . « الحلم راية بيضاء منحت ظلا نديا لأيام طفولتي . الرايات البيضاء محطمة في قعر المدينة . الغضب أغنية رجال مهزومين . أجهل العدو الذي هزمني . »

سقطت في السنوات العاصفة آمال كثيرة . وأصبح الانسان بحاجة الى جهد خارق ليميز البصيص البعيد . وفي لحظة الالتباس والانكسار الموجعة يختلط عليه الأعداء . لكنه ، عندما يهدأ ، يعرف العدو بالوضوح الذي عبر عنه الكاتب في قصصه السياسية . وكشف شكله (السلطوي) العام ، والمعارضة الجماعية له .

يمزق المجتمع الانسان . يجوعه ، ويضطهده ، ويحاكمه . يحرمه من الحب والأمان . يخطف منه سلاحه . يترك له هواء الحقد والهزيمة . يتمنى عباس بن فرناس تدمير الكرة الارضية . لكنه عندما طار فوق مدينته «ونظر الى أسفل فرأى مدينته التي ولد فيها صغيرة تتحلق حولها حقول خضراء ، فغمره حنان جارف مباغت ، فانحدر نحو مدينته بلهفة ، وحلق فوق بيوتها يرتجف في شرايينه حب عميق ورغبة في بكاء مر . » (الطائر)

على الدرب المسدود ، يخلع الرجل حقده . لايزال في أزمته ، لكنه يستسلم لحب المدينة ، للعتب عليها ، والحزن منها .

www.alkottob.com

القمع الآخر :

تخيل أبو مصطفى القانون « مخلوقا ضخما له آلاف الأيدي : القانون يأمر الشرطي فيطيع الشرطي ، ويأمر الشرطي أبا مصطفى ويجب ان يطيع أبو مصطفى الأوامر . »

ينفصل القانون عن الناس . ويلبس صفة القمع . ليس له ، ولا لمرادفه : العرف ، صفة منطقية مقبولة . عندما يتدخل تهرب النجوم ، ويتفتت الليل الجميل .

وشخصية منفذي القانون محرومة من الجمال والشرعية . على عكس ضحاياها . فبينما يحب محمد الشامي المواويل والنجوم » الشرطة لايحبون الموسيقى ويكرهون البحر . » ينفذون الحكم بالموت لأسباب تافهة ، أودون أسباب . يعتدون على التاريخ والحضارة . هم رمز المطاردة والظلم .

الانسان في جانب . والسلطة ، الشرطة ، والقانون ، في الجانب المقابل . والعلاقة بينهما ثقيلة . سوط وظهر . أمل وقمع . لانجد ثورة . نجد ادانة وضع قائم ، معاد للجمال والشاعرية . نجد يأسا مدمرا ، محرقا . ونجد أحياناً أملا . والأمل في الفقراء : « فاستولى علي الفرح ، فالصقر الذي يحيا في بيوت الفقراء سيصعد يوما الى أعلى ويمتلك سماء المدينة . »

يهوي الانسان خلال صراعه الى اليأس مرة ، والى الحزن مرة . والحزن هو الاعتراض ، هو الهوة بين الحكام وبين الناس . وهو لذلك ذنب ، في نظر الشرطة . (الصقر) و (المتهم) .

يظهر القمع في لحظة الصفاء ، في لحظة الشعور بالحرية ، ويبدو هذا

www.alkottob.com

التعسف دون مبرر . لكن عدم وضوح المبرر يكتسب قيمة رمزية . فأي مبرر للظلم ؟ وجود الاشخاص في القعر الفقير الاجتماعي ؟

ولا خلاص حتى بالموت ، تخرج الشرطة الموتى من قبورهم لتحاكمهم أو تنفذ فيهم حكمها . اصرارا على أن المظلومين لايستطيعون الخروج من النظام الاجتماعي ، ولا الهرب منه ؟ يبدو تعسف السلطة في عبورها حاجز الموت لتنفذ الحكم الاجتماعي على الانسان بأن يكون مستثمرا . لايحمي الموت الضحايا . رمز قوي لظلم دون حدود .

كان محمد الشامي يحب المواويل والنجوم . وقد مات بعد أن شبع من بناء البيوت لكن الشرطة أخذته . اقتاده رجال بثياب بيضاء « الى أرض فسيحة خضراء ، وهناك أنبىء بأنه سيشتغل في بناء القصور ، فلم يفه بكلمة . لم يطلق صرخة استغاثة وتوسل ، انما تلفت حوله كحيوان سمع انصفاق باب القفص ، وكانت عيناه طفلين مذبوحي العنق . »

جعلت فداحة الحكم ، فداحة « اللامخرج » . محمد الشامي يستقبل مصيره باستسلام يائس . « وفي تلك اللحظة كانت الأرض الجرداء والأرض الخضراء . لهما سماء واحدة مصنوعة من قضبان فولاذية . »

لايوجد مخرج في أية حياة أخرى وراء الواقع . نهاية عميقة الايحاء ، كأكثر نهايات قصص الكاتب . تكثف الظلام لتظهر فظاعة الواقع .

والسلطة القمعية ظالمة ، لاتقدس شيئا . تسحق الضوء في الحضارة والتاريخ . تشنق طارق بن زياد ، رغم أنه وجد ميتا من القهر . خلال المحاكمات المختصرة ، تظهر المواجهة بين المتهم والسلطة . تفاهة وغباء الاستجواب . لاتتناسب القسوة مع الأسباب ، ولاتجد مبررها . عمياء ، منتقمة ، وللتأكيد ذلك ، يذهب الكاتب الى النهايات القصوى ، ويلح

www.alkottob.com

عليها . يجعلها تلحق الانسان حيا وميتا وتختار أشكال الموت الحادة . يحكم بالاعدام غرقا . ينفذ الحكم بطارق بن زياد ميتا . والتجديد في شكل الاعدام ، يجعل الحكم يأخذ شكل الثأر والانتقام . وعندما تصل القسوة العمياء الى الانتقام من الحصان الذي دعس الشرطي ، وشنقه ، تكون تخطت المعقول . يذكرنا هذا بالانتقام من الحيوانات في وداعا غوليساري لأيتماتوف) .

القصص السياسية :

عندما تناول الكاتب الواقع الشعبي ، كانت الاخلاق المتخلفة خصم النضارة والنجوم . وكذلك كان الظلم الاجتماعي . وهاهو الجانب المتعسف يلبس وجهه المباشر : السلطة الظالمة وممثليها الشرطة والشيوخ .

واذا كان البطل الفقير ، رجلا دون آفاق كبرى ، أسير حقد طبقي أمام أبواب مسدودة ، فاننا في القصص السياسية أمام موقف متكامل ، متناسق ، واضح . ليست الهزيمة هنا أقل منها هناك . لكنها ، في الأعماق ، هزيمة السلطة المتعسفة ، البيروقراطية ، البعيدة عن العقل . الادانة واضحة ، قاسية ، صارمة ، وذكية واعية . والبطل الوحيد المهزوم هناك يجد وعيه الضائع هنا .

ينقلنا الكاتب الى المدن الغربية ، الى مدن التاريخ القديم ، كي نرى الواقع تحت شمس ساطعة . أو يحضر أبطال التاريخ المعروفين ويضعهم في الواقع الحاضر فيرينا التناقض الكبير بين المثل وبين الاحزان ، بين الصمود وبين الاستسلام . يكشف ، في ضوء فج لايرحم ، أخلاق الواقع ،

www.alkottob.com

وانهزامه ، وانتهازيته . ليست العودة الى التاريخ ، عند الكاتب ، دق طبول ، ولا فخرا ميتا . هي رد على العودة الصماء ، الغبية ، التي تتردد لتخفي الذل والانهزام ، وتعطي شهادة حسن سلوك للمعاصرين ، وتزور ارتباطهم بالتراث . يصحح الكاتب استحضار التاريخ . ينقض غباره . ويجعله نقدا واعتراضا على المواقف المعاصرة .

كما أنه بانزاله التعسف بالأبطال القدماء أنفسهم ، يبين جنون التعسف ، ويزيد من حدته ، ويؤكد لاعقلانيته . يؤكد الحقيقة الكبيرة : نحن ، رغم صلواتنا وبخورنا ، لانحترم تاريخنا . تخلينا عن الضوء فيه . قتلناه مع يوسف العظمة وطارق بن زياد وعمر المختار . .

يتحرك الكاتب بحرية . ويضع القضية كما يراها . يجيب على التساؤل ، يحتج ، وهو على أرض تلك المدن الغريبة ، على بساط تاريخ بعيد .

وهو هنا يفيد من الشاعرية ، ومن هدم الحاجز بين الموت وبين الحياة ، بين الحلم وبين الواقع . ومن جمود الكلمات الجاهزة التي تعبر عن فكر متحجر . وسائل تجعله حرا في التعبير وتجميع الصور وترتيبها .

« حكي عن دمشق أنها كانت في قديم الزمان سيفا أرغم على العيش سجينا في غمده ، وكانت طفلة تثقل الاصفاد خطوتها ، وكان ياسمينها ينبت خفية في المقابر مرتديا أكثر الثياب حلكة ، فلما علم أعداؤ ها بأحوالها ، سارت اليها جيوشهم وبنت حول أسوارها سورا من قتلة لايعرفون النوم . . »

(التراب لنا . . وللطيور السماء)

تثير القصة قضايا جدية ، تعرض منطقا فاشلا ، وذرائع هزمتها المآسي . لايعطي الملك السلاح للناس . لايثق بهم . ويرى أن « الحرب هي

www.alkottob.com

مهنة الجندي » . يرفض العلم ، ويرفع الايمان والأخلاق القديمة راية على أسواره . فتنهزم المدينة .

تلمح المأساة القديمة الى مثيلتها المعاصرة . وكأنها تؤكد أن المدينة لاتنتصر اذا لم ترفض الانبطاح الذليل على الأخلاق القديمة ، وتتعلق بطموح عظيم . اذا كان التفكير بالوطن مهمة ناس معينين ، لاحق المجموع .

في القصة مواجهة بين جانبين . الناس الذين يطلبون السلاح ، والعالم الذي يعرض اختراعه . وفي الجهة المقابلة : الملك والبطانة . الوزراء ، والحكماء ، وقائد الشرطة ، وقائد الجند ، شرائح السلطة . يحدد الوعي الحساس ، التضامن التاريخي بين جانب السلطة الفكري الديني المتخلف ، وبين جانبها القمعي المنفذ . يعري الوضوح ممثليها الطبيعيين . فيتقاسمون القرار بالاعدام وتنفيذه .

في حارة السعدى ، الوطن حارة وشجرة تين يحرسها أولاد الحارة من هجوم أولاد الحارة المجاورة . يمد الكاتب على الشجار العادي بين أولاد حارتين ، أبعادا عميقة .

صد الأولاد هجوم جيرانهم على شجرة التين . لكنهم وجدوا الشجرة عارية من ثمارها في الصباح . « علموا فيما بعد أن الحارس الليلي هو الذي قطف ثمار شجرة التين ، فتبادلوا النظرات الناقمة غير أنهم ظلوا صامتين ولم يجسروا على التفوه بكلمة ، فالحارس الليلي رجل ضخم الجثة ، صارم الوجه ، له شاربان كثان ، ويتدلى من خصره مسدس كبير ، وباستطاعته أن يسجن من يشاء . » هل هذا تجسيد المثل : حاميها حراميها ؟

الحارس رمز عميق . تكسبه صفاته وسلوكه رمزا لما يتجاوزه ، لما هو

www.alkottob.com

أبعد منه . هو رمز السلطة . تحمي الأشجار والبيوت والأحلام من السرقة ، في المفهوم الوطني العام . وتسرق هي نفسها ثمار الشجرة ، في المفهوم الطبقي .

حارة السعدي من القصص المركزة ، الجميلة . الرمز فيها مكثف ، وبسيط حي . تنسحب على واقع يتجاوز الحارة والحارس الليلي الى وطن وسلطة . ترتفع الغيمة ، ويحدث الكشف عن الحقيقة . يفجع الأولاد . تتبدد أحلامهم ، وتدخل الى حياتهم أول مجابهة للقهر ، أول ممارسة للصمت والهزيمة . لانزال في لحظة الصدمة . ولم تأت بعد الجرأة في مواجهة الحارس بقوة مواجهة الأعداء خارج الحارة .

هكذا ، لاتبعدنا الاسطورة ، ولا الرمز ، عن الواقع . تسهل حركتنا بين ظواهره وتجليه . وتمد صورة واسعة عن سنوات معينة . بانوراما سياسية ، تحيط بحرب حزيران وما بعدها .

يقول رجل ، على خلفية انفجارات نائية ، لرجاله : « مهمتي الآن اقناعكم أن الموت غير مخيف ولا يستحق أن تهربوا منه . » (رجل غاضب) . رجل محاصر . واضح أنه لايطلب الانتحار . يطلب من الرجال أن يدافعوا عن موقع . لكن الرجال يريدون الاستسلام ، وأعذارهم مختلفة في التعلق بما يحبون . ولايجابه الرجال العدو . يتراجعون . ويتنبأ هو نبوءته الحزينة : « أنتم ستقتلون في مخادع النوم . » وينتحر الرجل انتحار الرجل الجريء عندما لايستطيع أن يتحرك في الحياة في شكل آخر غير الموت . انتحار المحاصر ، المحكوم عليه بالاعدام . وليس هذا الموت هربا . انه الصعود الى قمة الصخرة . علامة يضعها على طريق الناس موت فاجع ، يتردد صداه حتى تستيقظ السنوات .

www.alkottob.com

في « الكرز المنسي » يلمس الكاتب وترا آخر في واقع فترة زمنية معينة . الفجيعة بالشعارات والمثل . يغوص المعلم الفقير ، عمر القاسم ، في وحل الضيعة . يحب الفلاحين ، ويحرضهم على مقاومة الأغوات . فيبعد عن الضيعة . يقول للفلاحين الذين يودعونه : « الآغا صاحب نفوذ وجاه في دمشق وهو الذي نقلني من ضيعتكم لأني لم أصبح خادما له ولأني أحبكم ولكن اليوم الذي تتخلصون فيه من ذلك الآغا وأمثاله ليس بالبعيد بل هو قريب وستر ونه أنتم لأحفادكم وستصبح الأرض التي تشتغلون فيها ملكا لكم . » يتحقق شيء من نبوءته ، ينهزم الأغوات ويصبح المعلم الثائر وزيرا . لكن الضيعة تبقى دون ماء الشرب ، دون دواء ، ولا كهرباء . نسيها المعلم الفقير عندما غرق في واقع طبقته الجديدة . أخذت فئة جديدة مكان الفئة القديمة . حدث تبادل في الامكنة . لكن الفقراء - طبقة - لم يدخلوا ضمن هذه التحركات ، على مايبدو . هل هذه اشارة الى أن الجذور ، فقط ، ليست هامة ، بل الهام التطلع الطبقي . اشارة الى ظاهرة عريضة في العالم الثالث : يخلع الثوريون الصغار تمردهم والتصاقهم بمنبتهم الفقير عندما يمارسون السلطة دون أفق واضح ، دون قاعدة فكرية راسخة ، ودون حرية تنظيم جماهيري قادر على الضبط والحساب . وتحت ضغط اغراء مادي عظيم .

لاشك أن من يهتم بتحولات البورجوازية الصغيرة ، يستطيع أن يرى في القصة مايهمه .

يترك الأبطال القدامى زمانهم وينزلون في زماننا ، ليقتلوا فيه . « يتدلى عمر المختار من أهواد المشنقة ، منكس الرأس ، مغمض العينين ، مطمئنا ، صامتا ، وقورا ، غير آبه للحارس المكلف بمراقبته والمسلح ببندقيته . » أمام هذا الوقار والكبرياء ، حارس تافه ، ومحاكمات تسبقها أحكامها . يخطف

www.alkottob.com

الحارس لعبة طفل متفرج . « لقد صودرت عقابا لك على عدم احترامك للقوانين » ويحاكم اللعبة .

« أنت يابنت متهمة بارتكاب جريمة سأنبئك بها فيما بعد فهيا اعتر في ولا تحاولي خداعي فأنا أتقن اطلاق النار » ثم يصرخ آمرا : « اعدام » يشد قامته ويصرخ : « الموت للخونة » .

دمغة بالخيانة سهلة . أحكام مسبقة . واعترافات مطلوبة ظلما . تتردد في قصص أخرى للكاتب . كأنها أصداء من حياة سياسية ممتدة على سنوات طويلة في الوطن العربي .

يشنق الحارس الدمية . وعند ذلك يبكي عمر المختار . يبكي على أسر الغيوم والعصافير والورد . أم يبكي على طحن الانسان حتى يصبح آلة غبية قاتلة ، دون تفكير ؟ لم يمت عمر المختار وهو يتدلى مشنوقا . كان فوق المشنقة يحلم . لم يمنع الموت الأول الشمس والأحلام عنه . لكن الموت الثاني المغمور بالحزن على موت الأشياء الجميلة ، وعلى الانسان ، أنهى الأحلام ، وأنزل الافق . توارث شموس الأرض « شمسا اثر شمس » . هل يمكن أن يقال أن عمر المختار لم يمّت على أيدي الأعداء في ذلك اليوم البعيد ، بل يموت على أيدينا ؟ يمكن القول ان الانسان عندما يهزم ويتخلف ، لاينسحب من مسؤوليته عن المستقبل والقادمين اليه ، فقط ، بل يزيد ، أيضا ، كثافة الظلام على نوافذ الضوء في الماضي . يطعن جهد الانسان الحضاري ، المسدد الى عدالة المستقبل .

في استدعاء يوسف العظمة الى الواقع المعاصر ، تقابل قيم الوطنية والفروسية قيم الحاضر ، وتدينها . يعرف وزير الحربية السابق أنه سينهزم ،

www.alkottob.com

لكنه يدافع ، بالمقاومة ، عن شرف الوطن ، ويستشهد . فأي انسحاب يبرر أمامه !

تأتي الاستغاثة رمزا لصرخة ممزقة ، كأنها من أرض محتلة . « غير أن أهل دمشق كانوا تياما فلم يسمع الاستغاثة سوى تمثال من نحاس لرجل يشهر سيفا ، ويقف فوق قاعدة من حجر مطلا شامخ الرأس على حديقة مبنى . »

لايهز النداء المعاصرين الأحياء . يهز الفارس التاريخي ، فينزله من تمثاله الى الواقع . مهارة فنية في طريقة ادخال هذا الفارس الشهيد الى عصرنا ، دخولا معبرا ، مدينا ، ومحزناً .

« واجتاحت الاستغاثة تمثال النحاس مريرة ضارعة ، ففقد صلابته شيئا فشيئا ، ثم تحول الى رجل يمشي ويتكلم ويغضب ويصرخ . »

لكن الواقع الذي يقبل البطل صورة ميتة محبوسة في زمن معين في التاريخ ، لايقبل اخلاقه وسلوكه اذا نزلت لتناقش المعاصرين . فدفاعه البطولي في ميسلون يعارض الحروب اللاحقة . عندها هزم يوسف العظمة هزم بطلا ، وبقي مثلا ، وحافزا ، وكرامة .

انه صريح ، جريء ، حي ، كما كان في وقفته التاريخية في ميسلون :

« - الانسحاب سيحافظ على أرواح رجالنا .

- اذن أنت تقترح الهرب .

- اني أقترح الانسحاب لاالهرب .

- الانسحاب والهرب أمر واحد لأن الوطن في حال الانسحاب أو الهرب سيترك للعدو ليستولي عليه .

- سنهزم لامحالة .

- نعم سنهزم ونحن نحارب .

www.alkottob.com

- ستقتل أنت وزير الحربية وحياتك ليست ملكا لك . انها ملك الوطن .

- أنا مجرد جندي . والناس يجوعون ويدفعون ثمن خبزهم للجنود كي يموتوا وهم يدافعون عن الوطن . سأكون خائنا ولصا اذا لم أمت اليوم »

كلام مباشر ، واضح ، كأنه منقول من أحاديث الناس في الشارع أو المقهى . المناقشة هنا دون لعبة فنية . سياسية ، مستقيمة . كأن كبر القضية التي أحرقت الناس بعد حزيران ، لاتحتمل الا هذه المباشرة .

يؤكد القائد القديم أن الرجل لايتخلى عن السيف « الا في حال الاستسلام أو الموت » فكم هو بعيد عن الحياة التي نزل اليها من تمثاله ! يحكم عليه الحكم المعاصر على البطولة والفروسية : الجنون .

« أغمض يوسف العظمة عينيه ، وأحس بأن شرايينه تمتلك الاف الأجنحة التواقة الى فضاء رحب ، فأطلق استغاثة التقت بالاستغاثة الآتية من أرض يحتلها الأعدام ، وامتزجتا في صراخ مديد تبدد في ظلمة الليل المهيمن على دمشق النائمة . »

ميسلون ، الزمن المضاد لحزيران ، بمعنى ما ، لكنها ليست ادانة شريحة معينة وموقفها ، فقط . ففي نوم المدينة وصممها عن سماع الاستغاثة ، عتب واضح على المدينة ، عتب يتضمن التحريض .

تحمل نهاية القصة ، التي يهتم الكاتب دائما بصياغتها الفنية ، الرغبة العطشى الى فضاء رحب ، الى الحرية . وتنطلق الاستغاثة ، صوت الحرية المقتولة ، وتضيق رقعة السماء . تعلق دائم بالاتساع ، بالفضاء ، وشهادة على الحرمان منها ، على تمزق السماء وهربها .

يجرح القصة ، في رأينا ، موقف متخلف لايجوز الصاقه بيوسف العظمة ، المدافع عن وطنه ، لا الفاتح : « لايحق لك احتقار السيف فهل

www.alkottob.com

نسيت أن أجدادنا أرعبوا الدنيا بسيوفهم » كلمات تعبر عن الوجه المنفوخ للزكرتية ، التي يدينها الكاتب عادة ، لاعن الشجاعة النبيلة التي تعبر عنها القصة .

القيمة الفنية

. تتميز القصص عامة بجودة صنعتها الفنية . بغناها بالرموز والأساطير . وبأهم ضرورة فنية : غنى الايحاء ، وعمقه .

يحول الكاتب الحادث العادي الى قطعة فنية ، ويحمله الايحاء العميق بنقله الى أرض أخرى عامة ، اجتماعية أو سياسة .

قد يكون الواقع لقاء بين رجل وامرأة ، بين رجل ورجل . لكن الكاتب يكشف تأزمه وكوابيسه ، ينزع قشرة الحياة الهادئة ويكشف تناقضاتها ، ويضعنا أمام مشكلة .

بطله رجل عادي ، أمي ، شعبي ، يحمل ، غالبا ، صفة التعميم . يوحي بالكثرة . أما البطل الآخر ، المفكر ، الذي يخرج من البيئة الشعبية ، من الحارة القديمة ، ويدخل المدينة الجديدة ، باحثا عن العدالة وعن الحرية ، فله صفة الفرد المتميز . يبحث عن الحرية في جوملموس ، واقعي ، في الحارة الجديدة ، أو العمل الجديد . أوعلى دروب الحكايا والواقع المتخيل المصنوع .

ويتحرك الأبطال دون فصل بين الأزمنة . لايوجد حاجز بين الموت والحياة ، بين الحلم وبين الواقع . ينتقل الأشخاص من أحدهاإلى الآخر بيسر . يشاركون في الحياة والموت . يتحدث الأحياء مع الموتى . ويعطي الموتى آراءهم في الحياة . يخرج الشخص من القبر ليمثل مأساته . ينفرش

www.alkottob.com

عليـه ، حيـا وميتـا ، قدر واحـد ظالم . لايستطيـع عامـل البنـاء أن يخرج ، بالموت ، من مكانه الاجتماعي . فيستمر بعد الموت في بناء بيوت الآخرين .

تعطي هذه الحـريـة في الحـركـة ، الكـاتب امكـانيـة التعبـير عن واقع أشخاص وأزمة . لانميز ، أحيانا ، أين الحلم وأين اليقظة . لكننا ، دائما ، أمام واقع مهشم .

تعبر (الحفرة) عن هذا التنقل بكل تنوعاته . لذلك تتميز بالقدرة على بسط أحزان الشرق وقيوده من خلال حادثة عادية « دفاعا عن الشرف » ، في اسلوب شاعـري غني بالـرقـة . لانعرف هل أنكر الرجل معرفته بالفتاة ، هل رفض الزواج منها فلم يمنع الفضيحة والقتل ، أم ذلك حلم . لكننا نعرف أن ذلـك يحدث . وأن حب الـرجـل يوازي القتل . مغامرة بالحياة . ونطل على تبذير العمر .

يخرج الـرجـل من تابـوتـه ، ليظهـر اللهفة على الحب المقتول . ويرفع نداءه الحب والحياة عبر الموت ، صرخة احتجاج مسحوقة على قصف سعادة ممكنة ، لأجل قيمة متخلفة موهومة .

استطاع الكاتب بالتنقل ، والشاعرية ، أن يرسم بانوراما واسعة لواقع شعبي في أزمـة . وكـان مزجه بين حادثة تقليدية وبين أسلوب مبتكر ، حي ، حركي ، جميلا وفنيا .

يحدث استدعاء الاسطورة على حافة الحلم ، أو في ضوء النهار . فيظهر خاتم لبيـك أمـام الصبي الذي كسر صحن اللبن (شمس للصغار) . وتأخذ الحكايا القديمة مكانها في الحاضر ، طبيعية ، عادية . وقديعكسها الكاتب ، فلا يصبح الفقير الآتي من الغرب ملكا ، بل يقتل (حسن ملكا) . وتدخل

www.alkottob.com

في القصص ، رموز الأولياء وألوانهم في الخيال الشعبي . « نام العجوز ، وعندئذ دنا منه رجل ذو ثياب خضراء ، وقال له بلهجة آمرة : اتبعني . »

يجعل وجود الموت ، الأزمة حادة . ويعطي الجو لونه . هناك وصف دقيق للقبر ، وللبلاطة التي تسده ، وللقتل بأشكاله . ولكن ، في المقابل ، يتردد لحن السماء والمواويل ، والرغبة في الحرية ، والنجوم . والحياة تتجول بين هذين الطرفين . وما النهاية ؟ يعنى الكاتب بنهايات القصص . وهي غالبا صوته وكلمته . تنهدم النجوم من الحياة . لكنها لاتغادر الحلم الانساني . تنطفىء العينان وهما تتطلعان الى السماء . يتحول التطلع المتوكل الى السماء ، الذي ألفناه حولنا ، الى التماس الرحابة ، والتعلق بالحياة . يظل الحلم بالفضاء والحرية بعد الموت . وعندما يبدو أن التناقض حُل باليأس النهائي أو بالقتل ، نكتشف أن الأزمة لاتزال مطروحة . في الظروف الراهنة ، لاتحل القضية حلا انسانيا .

« . . ولكنه كف عن البكاء لحظة انزاح غطاء التابوت قليلا عن قطعة صغيرة مضيئة من سماء عميقة الزرقة ، فرنا اليها مبهورا . » (الحفرة) .

« . . ولكنها مالبثت أن هجرت البيت زاعمة أن ثمة شبح شاب يجوب الغرف في الليالي المقمرة ويطلق صراخا أجش مفعما بالكآبة وتواقا الى الحدائق الخضراء والنجوم والنساء . » (موت أحدهم)

« وهاهو يمشي وحيدا في صحراء لاماء فيها ولا ظل ويوشك أن يسقط ولكنه لايستسلم ويستمر في السير الى الأمام وهو يترنح ويئن . » (في الصحراء)

« وأغمض يوسف عينيه ، وأحس بأن شرايينه تمتلك آلاف الأجنحة التواقة الى فضاء رحب » (الاستغاثة)

www.alkottob.com

نلاحظ أن الصور الدموية قوية ، مؤثرة ، عندما تعني مواجهة اجتماعية أو سياسية مربوطة بقضية . مثل موت امرأة لأنها أحبت ، أو قتل بطل قادم من الماضي . يكون للرمز ارتكازه الواسع . ويبدو مقبولا ، راسخا ، له جذر في الأرض . ليس وحيدا في فراغ .

ويبدو أقل قوة ، عندما يكون الشخص وحيدا ، وعالمه غريبا ، والقتل انتقاما من الدنيا كلها . عندما يقتل رجل حزين امرأة تحبه ، وهي ، مثله ، مظلومة أسيرة . تصبح الامنيات عند ذلك مجنونة : قتل الناس ، وكره الاطفال . تعبر عن حياة غرقى ، لم تبق فيها غير الرغبة في الدمار الكلي . رغبة المقهور الوحيد في مجتمع متوحش ، ضاع فيه أصدقاؤه ، وضاع فيه حلفاؤه .

تمزق هذه الامنيات ، الشاعرية . وتجرح . لكن الرجل ينهض باحثا عن الأرض الموعودة الرحبة . ويعود الرمز يتلمس جذوره في الأرض . وتعود الانسانية الى صوت الرجل . تنزلق عنه العداوة التي ضاع اتجاهها ، ويهبط حزينا على درب البحث عن البحر :

« أرسلي الي ملابس صوفية . آه القبر بارد ياأمي وشمس البحر نائية . »

زكريا تامر في النقد السوري :

أكدت السنوات التي شهدت ممارسة العنف ضد الخصوم الفكريين ، تخلف هذه الطريقة في المبارزة . فعندما يعطى هذا الاسلوب الشرعية ، يصبح تقليدا وطنيا ويمر تحت حده جميع المتخاصمين . وهانحن نشعر بضرورة نقل العداوات الى مستوى لاتضيع منه الفروسية والشهامة . قد يكون

www.alkottob.com

شعورنا بحق الآخر في الأمان الانساني ، مهما كان موقعه ، هو في الوقت نفسه دفاعنا عن النفس ، دفاعنا عن الموقع الشخصي . كما هو احترام عميق لحق الانسان في الاختيار والتفكير والتعبير .

ومع ذلك ، ماأصعب قبول حرية الرأي الآخر وشرعيته . وما أصعب بناء تقاليد الاحترام المتبادل والعدالة بين الخصوم الفكريين . وما أشد اغراء أن تكون الساحة حرة ، فارغة ، لموقع واحد .

مرّ الظلم ، في العالم ، بالنقد الأدبي ، مروره بالساحات الفكرية الأخرى . ولكن رغم حدة الصراع بين المواقع في العالم ، نرى أن النقد ، عامة ، اتجه نحو العدل . ونحن لانريده قدرة حاسمة على التعتيم ، ولا تنافسا في التعسف . ولا وسيلة لتصفية الحساب والانتقام ، واخراج الكتاب من الساحة الفكرية . بل مناقشة عاقلة ، لاتغفل كشف الجوانب الايجابية والجمالية في أدب كاتب قد لانتفق معه في الرؤية .

لكن العدل لايولد فجأة . ينبت من بقع الضوء في التاريخ . في شهادات الكتاب أن مایاكوفسكي عارض هجوم جدانوف على أخماتوفا . كان ضد الحكم الاداري المتعسف على كاتبة بالموت . ودافع عنها دفاع كاتب ثوري عن كاتبة وثقافة .

ولم تضيع الناقد السوفييتي بختين ، آراء دستويفسكي ، ولا الآراء فيه . استطاع أن يلمس الفرق العظيم بين سذاجة آراء الكاتب وبين عمق فهمه الواقع عندما يكتب عنه . فرآه في أدبه العبقري الذي استطاع التقاط روح العصر ، والكاتب الذي كشف ظلم رأس المال ، والفنان الذي قدم للأدب العالمي شخصيات حارة غنية .

فلماذا لانتطلق ، نحن أيضا ، من الضوء في النقد ، لامن الظلام

www.alkottob.com

فيه ، ونبدأ من احترام مكتسبات الفكر والثقافة التي اعتمدتها الثورات الانسانية .

نفهم ، عادلين ، رؤية جدانوف : مباشرة ، وبسيطة . لكن وزنها وقوتها ليس في أنها كانت واقعا يحف به الاداريون زمنا . بل ، أيضا ، في أنها تلائم الانسان المحاط بالنيران ، والطبقة المسحوقة الجائعة التي تحتاج كلماتها المباشرة . لكن هل رؤية فيشر ولوكاتش وبختين أقل قوة ، برحابتها وعمقها .

هل يوجد اسلوب ممنوع ؟ لا . ولا أسلوب جامد ، أبدي . المباشرة والرمز والأسطورة والواقع . يهمنا ماذا يفعل الكاتب بذلك الاسلوب ، عن أي صراع راهن ، وعن أية أعماق انسانية يكشف . اذا كانت الأساليب الفنية والرموز الجديدة تسهل حركة الكاتب في كشف الظلم وفي التعبير عن الانسان ، فلماذا لانقبلها .

« ان الأفكار الفنية لايمكن أن تقوم بمرسوم ، وانما هي تتشكل وينبغي أن تتطور خلال عملية الانتاج ، بالنشاط الحر لمختلف الحركات والأساليب وعن طريق تنوع الحجج والمناقشات . فالفن الجديد لايخرج من النظريات بل من الأعمال الفنية ذاتها . » (ضرورة الفن - فيشر)

ويقول فيشر : « اننا نحتاج الى وسائل جديدة للتعبير من أجل تصوير الحقائق الجديدة . . » ويرى أن الفن الاشتراكي يمكن أن يتعلم من الفن البورجوازي ، والواقعية الروسية ، كما يتعلم من فن مصر القديمة وآسيا والانطباعيين وبيكاسو وهومير وس والانجيل ورامبوبروست . « ليست المسألة هنا مسألة تقليد اسلوب من الأساليب ، وانما هي مسألة ادماج مختلف عناصر الشكل والتعبير في كيان الفن ، حتى يمكن أن يتلاءم مع الواقع الذي تتعدد جوانبه الى غير نهاية . » (المصدر نفسه) .

www.alkottob.com

فيما يخص زكريا تامر ، نرى أن النقد السوري تجاهل قصصه السياسية الهامة ، وموقفه المتقدم من التعسف الأخلاقي . كما تجاهل أهمية عناصر الجدة ودور الرمز والتنقل في قصصه . لم ير أهميتها في كشف جوانب الواقع . وأدانها ، أومدحها - من هذا الجانب ومن ذاك - على أنها غيبية ، مضادة للواقعية . معتبرا الواقعية - من الجانبين على السواء - شكلا مسدودا ، متجمدا ، يجب أن تظهر فيه عناصر الواقع بوجوهها الطبيعية . وهذا يتجاهل الجوهر ، الذي هو كشف حقيقة الواقع وحركته . وتحرك الاسلوب مع العنصر الاجتماعي وافادته من المكتسبات الفنية ، على امتداد الفنون كلها ، وبكل تنوعها .

يقول الناقد : « الاجتماعي لايصوغ الشكل الفني مباشرة ، بل هو يفعل فعله عبر خلخلة الجهاز النفساني للفنان ، بحيث يخلق في داخل هذا الجهاز قوى محبطة تبحث عن اشباع ، وبحيث يمكن الخيال من احاطة محتوى منطويات للاشعور المقهورة الى عناصر درامية ، أو عناصر تقنية تتولف منها القصة »

يخرج الفكر من الأدب . يسحب النحت الدؤوب منه ، قيمة العمل الكبرى . ورد الفعل الواعي . وينكر أن يفكر الكاتب في مجتمعه ، ويحلله ، ويبحث عن أساليبه الملائمة للتعبير ، لقول كلمته ورأيه . يحول الفن الى عمل لاشعوري ، غير واع .

وطبيعي أن يجعلنا احترامنا الفنان ، نرفض هذا الموقف .

يبدو ضيق طريقة التحليل النفسي اذا طبقناها على الفن السينمائي والمسرح . فالعمل السينمائي موجه بفكرة ، بوعي ، من خلال اجادة (التكنيك) ، وتحريك الأدوات تحريكا واعيا . مهما كان هذا التحريك يهدف

www.alkottob.com

الى تقليل يقظة الناس الذين يخاطبهم،وكذلك في المسرح : أي مسرح ممكن دون اتقان العمل الفني ، دون عمل عمل جاد ، مجهد ، وطويل . يحذف القول باللاوعي في الفن ، المسرح السياسي كاملا ، منذ أصوله حتى الآن . يحذف فنانين كبارا مثل بسكاتور ، وبريخت ، وايزنشتاين .

ويعجز التحليل النفسي عن تفسير مسألة التجديد والتجاوز المستمر في الفن لما سبقه . دمج عناصر الشكل ليتلاءم مع الواقع الجديد . والافادة من التراث ، من الفنون البدائية ، والكلاسيكية ، حتى الآن .

يقول فيشر : « نحن نعرف أن العمل بالنسبة للفنان عملية عقلية واعية . وليس مجرد انفعال والهام . وهو عمل ينتهي بخلق صورة جديدة للواقع ، تمثل هذا الواقع كما فهمه الانسان وأخضعه لسيطرته . »

« فليس الانفعال كل شيء بالنسبة للفنان . بل لابد له أن يعرف حرفته ويجد متعته فيها . يجب أن يفهم القواعد والأشكال والخدع والأساليب التي يمكن بها ترويض الطبيعة المتمردة واخضاعها لسلطان الفن . ان الأشواق التي تحرق الفنان السطحي تخدم الفنان الحق فهو لايقع فريسة للوحش بل ينجح في ترويضه . »

يقول تاغور في مقاله (موضوع الأدب) : « مجال الأدب الأساسي ليس الاكتشافات العلمية ، وانما الوعي الانساني والمشاعر الانسانية . »

لانستطيع أن نفسر قصص زكريا تامر استنادا الى التحليل النفسي . لأنها رد على الواقع ورأى فيه . ولأن عمل الكاتب الفني ، الواعي ، واضح فيها . نجد أقصى درجات الوعي ، وأعمق مشاهد الواقع ، وراء الرمز ولعبة الخيال والأحلام . ونقيمها عملا واعيا يستحق الفنان به جدارته الأدبية . لاغيبوبة ، ولا عمل عقد نفسية وكوابيس .

www.alkottob.com

نحتاج الى التحليل النفسي لنكشف سبب العنف والجريمة والقتل ؟ بل نحتاج الى نظرة صادقة الى الواقع الراهن ، والى الشرق ، الى ماضيه المثقل بالزرنيخ والخناجر والخنق والصلب . يعيد الينا الكاتب عنف التاريخ . قتل الخلفاء ، وتتويج الخلفاء ، ودسائس البلاط . ويكشف لنا حقيقة العلاقة « المقدسة » بين الرجل والمرأة في الواقع . القسوة الدامية في معاملتها ، والقتل ، ارتباط جسد المرأة بالحق الاجتماعي ، بالملكية ، لا بالحق الشخصي . ترنمنا خلال أجيال ، بقتل ديك الجن جاريته ، وبجمال شعره فيها وحبه لها . ولم نهتم بتفسير ذلك القتل وتعبيره عن واقع نعيشه .

لا حق للمرأة بأن تحب . ليس لها حقها الشخصي بالتصرف بجسمها . وهاهي عطشى الى حب الرجل ، وتحمل خوف العصور منه . تنوس بين الرغبة الطبيعية في الاكتمال فتقامر : تحب . وبين الخوف الموروث ، فتصبح غير قادرة على تبادل الحب انسانة كاملة حرة .

لا نرى ، كما يرى الناقد ، أن الكاتب أخذ القتل والذبح من أعماقه ، من كرهه الحياة والناس . من جهازه النفسي وأحلامه . أخذه من الماضي المليء بالفواجع ، ومن الواقع المليء بالقتل والانتحار والأسيد . محال أن نبرىء مجتمعنا وماضينا من بقعه السوداء ، ونهرب من واقعنا الى التفسير في الأحلام .

لا ، ليس الكاتب مريضا . مريض ، فقط ، بحزنه على تمزق الناس حوله . على ضياع حياتهم في مجتمع مريض بتعسفه وتخلفه . خارج ذلك ، نرى الكاتب الجاد انسانا عميق التفكير ، حاد الحساسية ، يتميز بالقدرة على تحليل الظواهر ، وباتساع الرؤية .

ولن يوصلنا الاهتمام بالجهاز النفسي للكاتب الى فهم أدبه واسلوبه .

www.alkottob.com

يوصلنا الى ذلك ، الاهتمام بتحليله ، فهم عمله الواعي لخلق واقعه الفني الجديد .

كما طبقت على الكاتب مفاهيم جامدة . ألزم بنهايات ثورية . وأدين لأنه لم يؤكد التفاؤل والايجابية . وتجاهلنا بذلك واقع المجتمع الذي يعيش فيه ، واقع آفاقه ، وواقع القوى الموجودة فيه وثقلها . وربما امتدح الكاتب ، من الموقع المضاد ، لأنه لم يفعل ذلك . كأن هناك تفاهم واتفاق على مفاهيم قاصرة عن الأدب الطليعي .

نرى أن تلمس الايجابية ، انطلاقا مما سيكون في المستقبل ، وتلمس التفاؤل في الأدب لأن نهاية التاريخ الانساني مضيئة ، تبسيط جدي . وقد يأتي بالنتيجة المضادة للوعي والايقاظ : جعل الناس ينامون على اطمئنانهم الى انتصارات موهومة ، ويتخيلون امكانية الحل المرضي في الظروف الراهنة .

تحتاج الدعاية والاستفسار ، في الأيام الملتهبة ، ذلك التفاؤل . وهو واقعي ، تمليه الاطلالة على حياة جديدة ووضع جديد . والموقف يأتي من قلبها من لهبها ، لابسا فنه . مرتديا في الأدب الكبير ، وظائف الفن الأخرى العريضة ، غير المباشرة ، وتوجهه الى الانسان عامة ، الى الزمن الأرحب ، الى المستقبل الذي لانراه ، وانسانه الذي لانعرفه .

وهناك أيام في التاريخ لاتمنح فيها فجيعة . فما أبعدنا عن الواقع وما أكثر انعزالنا عن الناس اذا ألصقنا الفرح بنا لأنه من سمات تطلعنا الى المستقبل . نغرق في دماء المجازر . ونتفرج عليها . ولسنا في الأيام التي يملكها الانسان العادي . والخطوة اليها ليست حازمة ، واضحة . فأي حزن لايبرر . في الجو

www.alkottob.com

نسمة من زمن ليرمنتوف . حداد . ليست المسألة مسألة استبعاد الحزن . بل : ماذا يثير الحزن . وأي غضب ورفض يولعه ؟

ونرى أن النقد يخلط بين آراء الكاتب وبين أدبه . فيهمل مسألة في النقد هي مسألة التناقض بين اخلاص الكاتب للحقيقة عندما يكتب ، وبين اخفاقه في توضيحها خارج عمله الفني . فالنقد ، عادة ، ينتبه لذلك ، ويبين التناقض أو التوافق . ولا شك أننا نذهل اذا دخلنا الى دهاليز حياة كبار الكتاب . لاتدهشنا العظمة والانسانية فقط . بل تدهشنا السذاجة والضعف والتردد ، أيضا . لكن مايهمنا هو النص . وماكنا نهتم ، أصلا ، بحياة الكاتب لو لم يكن النص المرجع والهدف

لانجهل أن في « بيت الموتى » آراء ساذجة ، غير مقبولة . ولكن أليس في النماذج والحياة التي قدمها دستويفسكي في ذلك الكتاب ، نقيض تلك الآراء والاستنتاجات ، ألم يقدم في كتبه الأخرى ، وهو الداعية الى الايمان ، ثقل الالحاد وقوة الشك ؟ انفصل عن اشتراكيي زمنه ، وخفض رأسه للسلطة القيصرية . ولكن ألم يكن أدبه ادانة وحش المال والاضطهاد ، أساس تلك السلطة المتعسفة ؟ عندما تدرس الساتريوليه تشيخوف ، تقول : ان الشاهد الأساسي هو آثار الكاتب . ونرى أنها على حق .

نحن لانكتب خارج الزمن البشري . نحن أبناؤه الذين يتجاوزونه ولا يتجاهلونه . قد نحب أن نكتب بلهجة تشيخوف ، من خلال حياة الناس العادية ، وهم يأكلون ويشربون ، لامن خلال أزمات دستويفسكي والقتل والجنون . ومع ذلك ، عندما يكون الواقع كابوسا ، نسمع طلقات الرصاص ، والانتحار ، والحريق ، في كل أدب صادق ، مهما كان أسلوبه . يستحيل الهرب من كوابيس الزمن ، بما في ذلك ، زمننا .

www.alkottob.com

لذلك ، وان كنا نختار الكتابة بطريقة مختلفة عن طريقة زكريا تامر ، وان كنا نظهر وجه الأزمة خارج حوادث القتل ، فنحن لاننكر أن الواقع كابوسي . ولا نجد التقاط التأزم الدموي في هذا الواقع ، وخلقه في الفن ، صفة سيئة ، أوطريقة ممنوعة في الكتابة ، أوسبة على الكاتب . نرى أنه لم يخترعه . كشفه . نزع الوجه الاجتماعي المهذب عنه . وله الحرية في أن يفعل مافعل دستويفسكي : أن ينبش أوراق القصر العدلي والحارات العتيقة .

وبعد ، هل قيمة الفن في أنه قابل للشد الى طرفنا في معركة سياسية ، أم أن للفن توجهاً ثقافياً عميقاً ، يتجاوز المباشر . توجهاً انسانياً . ارتباطاً بالزمن القادم ، بالزمن الانساني . سؤ ال لايجاب عليه بحذفه ، ولا باختيار بسيط ، سهل . فحلم الكتاب هو الانتقال الى الزمن البشري ، الى الانسان المقبل ، عبر هذا المباشر ، والغوص فيه ورفضه . الشكوى منه والارتباط به ، والحلم بالبديل .

في مقالتين نشرا في الموقف الأدبي (عدد القصة ١٩٧٧) وفي مجلة المعرفة (العدد ١٨٩) نرى زكريا تامر ضحية التحليل النفسي ، منهج معروف ، يضيء شيئا في العمل الفني ، لكنه لايستطيع أن يلم بجوانبه .

« الموضوع النفساني الأول لقصص زكريا تامر الداخلية العدوانية التي يرسخها القهر » « الموضوعة الاساسية لمعظم القصص التامرية هي العدوانية التي تشعر أن أهم مرسخاتها هو القمع الذي تفرضه الثقافة على العشق . »

لماذا جاءت العدوانية ؟ رد فعل على ماذا ؟ نسيج ماذا ؟ اخرج الناقد الفن من الزمن . جعل الطباع أزلية في الانسان ، مولودة معه . والانسان معلقا خارج المجتمع . وهكذا برأ المجتمع من أمراضه ، من مراحله ، من قمعه . حوّل القمع الاجتماعي الواضح الى قمع ثقافي .

www.alkottob.com

سبق أن طبق هذا التحليل على أعمال دستويفسكي . وكم صغّرها ، رغم مديحه لها فكانت انعكاسا لعالم اللاوعي واللاشعور الذي ينزله إليه الصرع . حذفت معرفة الكاتب الكبير بالناس ، والنماذج الكبرى التي رآها في بيت الموتى . بحثه في قاع المجتمع . فهمه قضايا عصره . وبهذا التحليل كان عالم دستويفسكي عالم مجرمين وقتله لاعالما اجتماعيا واسعا .

« ونحن نشعر أن أبطال المجموعة ، في الغالب الأعم ، ترهقهم الحياة حقا . ومع أنهم يجنحون نحو القتل ، فان في أعماقهم التحتانية رغبة في الموت نادراً ماتتبدى على السطح . ان عالم البطل التامري هو عالم خناجر وقتل وموت ، عالم انتحار وقهر ودم واغتصاب » « يتبدى أن أبطال زكريا تامر يتسمون - أساساً - بسمتين رئيسيتين : السادية والعدوانية الدموية . » « ان التقنية (الشكل) والبطل التامري ينبثقان معا من احساس الكاتب بالقنوط والتشاؤم . »

يهمل هذا التحليل ، الرغبة الكبرى في الحياة ، على ألف وتر ، بألف نغمة . وأن كثيرا من قصص الكاتب أنشودة ضد القهر والتعسف ، عن عشق الحياة . لماذا يصرف الناقد انتباهه عن هذا ، ليؤكد جدارة التحليل النفسي ؟

« هل من صلة تربط هذا الشكل وبين الجهاز النفساني المدمر في الكاتب ، ان من المؤكد ان كل شكل فني يرتكز الى حد بعيد على الأرضية اللاشعورية لكاتبه . »

تشهد مسودات الكتاب ، وأقوالهم ، على عملهم الواعي ، المنهك ، لخلق أثر فني . كان بيكاسو يبحث عن خط ضروري في لوحته . ولم يشعر بوجود شخص الى جانبه . بعد ساعات وجد ذلك الخط ، وجد التوازن

www.alkottob.com

المفقـود في اللوحـة ، فلماذا نهمـل هذه الاشـارات التي قد تسـاعدنا على فهم العمل الفني .

قد تكـون مشكلتنـا أننا من العالم الثالث . أغنياء باضطرابات واقعنا ، فقـراء في تنظـيرهـا ، نحـاول فهم الحيـاة والفن على أسـاس المستـوردات الفكـريـة . لكن هذه البضـاعة لاتتحول الى ثقافة عميقة أصيلة تجعل العين المحلية أقدر على التمييز والرؤية .

www.alkottob.com

محمّد المـاغوط

أصـالة ، وأزمـة

« سأعـود الى ضيعتي . سأبني غرفة وأعيش فيها » . هل يطلب الامان والملجأ في جزيرة نائية يلمح منارتها من بعيد ؟ ذهب الى الضيعة ، فبقي فيها ليلة واحـدة . بنى اخـوتـه هنـاك غرفـاً في البستـان الكبير الذي كان مغروسا بالسرو . وتركوا له سنروتين فقط . لايوجد الملجأ في القرية ، أو الحي القديم ! يجب ان يبحث عنه في طريق اخرى . والماغوط ليس مؤهلا لذلك ، ولا راغبا فيـه . هو رهـين غربـات ثلاث : عن الوطن ، والطبقة ، والعصر . لايلغي ذلك ، شوقة الحار الى الحياة . شعره ، من هذا التناقض بين حب الحياة وبين الغـربـة وغيـاب الايـمان . ومن ذلـك في شعره ، التمرد اليائس ، والتشرد ، والاسى . ومن ذلـك وقفتـه على حد جارح كالسيف بين عالمـين يقـول في اشكال متنوعة انه يرفضهما .

يحمـل دفـتره ومظلتـه ، ونظـارتيـه ، ويمشي في وضـع الكاتب الذي تحتشـد حولـه الهواجس . يعيش في الواقع وفي صورته . يسجل مشاهد لاتجد وقتا للصياغة ، ولا يلح عليها بعد طلب . ويمضي لينجز العمل الذي لايحبه .

حيـاتـه معلقـة بين مدينـة هادئـة في السنـوات الخمسـين ، ذات طابع معـماري واخـلاقي وعـلاقـات وبـين مدينـة مزدحمة ضيعت طابعها القديم في

www.alkottob.com

السنوات الثمانين ، تؤكد غربته . فيمر بالمقهى كما يمر بمحطة . ويشعر بأنه وحيد في الزحمة هناك . يمشي في شوارع تكتظ من زيادة السكان ، من الهجرة الى العاصمة ، من هجرة الريف الى المدينة ، ومن المهجرين في الارض المحتلة . يرى نفوذ تجار العقارات يقتل الشجرة والارصفة والمساحة والبيوت القديمة . يتعثر بالحفر في الطريق التي مشاها يوميا سنوات ، بين مقهى « ابو شفيق » في الربوة وبين المدينة . ويرى انكسار القيمة الجمالية في العمارة العربية ، الارث الوحيد الذي قد يعترف به .

سمة الماغوط ، حس سليم ، واستنتاج غير سليم . تعمق الغربة عن المدينة فيه ، النفور من التجار . لكنها تعمق فيه أيضا الغربة عن المنطقة . يشترك مع جيله في الغربة عن المدينة التي خططها تجار العقارات . لكنه يختلف منذ البداية عن ذلك الجيل .

ظهرت اول قصائد الماغوط في « النقاد » ، نافذة ذلك الجيل ومعرضه . لكن جيل الماغوط يعود الى السنوات الخمسين ، فخورا بها ، كأنها الزمن السعيد الذي عاش فيه الاعداء والاصدقاء على مستوى متساو من الحرية . فكر كل منهم في نجاة الوطن على طريقته ، وفي شروطه ، ومع ذلك تجاورا .

أصول كثير من الكتاب والفنانين المعروفين ، في تلك السنوات . يرقّون عندما يذكرون فيها شبابهم ، وحوارهم الحار ، وآمالهم الشخصية . ويزون الانتماء اليها مما يقرب بين المتنافسين بعد ان جلت التجارب المرة القضايا التي اوقفتهم في خلاف .

عندما تعود معهم الى تلك السنوات ، تدور في الشوارع النظيفة . لاتمسك بامتيازات عظيمة ، لكنك تأمل بها عامة ، مشتركة . تراها سنوات الدروب المفتوحة والنهوض الوطني في الشرق . سنوات النهوض في العالم

www.alkotob.com

الثالث ، واجتماع القوى فيه . لم ترفع الشعارات بعد تجارة اوسترة . ولم يطلب النضال الوطني أجره المباشر من الامتيازات . بدا الخطأ والصواب في ذلك الزمن بحثا عن النجاة العامة .

الماغوط على خلاف مع ذلك الجيل . لايذكر تلك السنوات بالخير . فيها خطا اول الخطوات في غربته . فيها كان سجينا معذبا ، بينما كان جيله يحتفي بانتصاره على « الامبريالية » او يحتفي بأنه يواجهها .

دعت افتتاحية جريدة « البناء » في آخر أعدادها الى حلف بغداد . وكان ذلك صاعقة على الشعور العام . لايناقش الماغوط ذلك الواقع السياسي . بل ينتبه الى ماعاناه هو في السجن ، وما رآه فيه . تظل هذه المواجهة الاولى في السجن حية أمامه . يرصف حولها مايراه من حوادث ، ويدين بها الامة كاملة . ويستمد من هذا النبع عناصره ، التمرد واليأس والرفض والغضب والرغبة في الهرب .

في السجن اكتشف الماغوط قسوة الفقراء الذين يمزقون فقيراً مثلهم . رمي على ارض المخفر على الحدود . فأصبح للحدود معنى وطعم لاينساه . واصبحت تخيفه فيجف ريقه كلما قطعها ولو كان يحمل جوازا واذنا . كان مروره بالمخافر والسجون سياحة كاشفة . اوصلته الى رفض العنف والاعتقال ، وتقديس الحرية ، مطلقة دون حدود . واوقدت فيه خوفا لايخبو ، يحرقه ويسوطه . وقد تكون الحرية وهي على هذا البساط المطلق ، هي التي نسفت خيوطه الى الوطن والطبقة .

رأى الماغوط هناك من يضع القطط في سراويل المعتقلين ويضربهم في حقد . وانكسر حلمه بمستوى انساني يلتزم به التنافس والقتال ، ولا يكون فيه السوط حكما في الخصومة .

www.alkottob.com

وربما جعلت المجازر والاضطرابات هذا الحلم كالوهم . فأكدت فيما بعد سخرية الماغوط منه . ونفت امامه امكانية الدعوة له .

لكن الماغوط وهو يضع الحرية على هذا البساط المطلق ، يضعها باهرة وجميلة ، وعاجزة دون أية طريق أرضية اليها . وليس لها من يدافع عنها في كون لايغمر فيه الضوء رقعة من الارض الا بقوة السند البشري .

لم يعرف الماغوط ، قبل السجن . الرخاء في المدينة . لذلك قد ترى في صورة القرية في شعره بعض الدفء . بينما تظهر المدينة فيه مرغوية ومرة . نام في دمشق في الحدائق العامة . لم يفتح له اصحاب غرفته الباب عندما عاد متأخرا . لم يقبله قريبه في غرفته لانه لايستطيع ان يساهم في اجرها . اغمي عليه من الجوع في الطريق . بحث عن اي نوع من العمل . وكتب اول مرة كي يأكل اللقمة .

يقول : « امس ، وجدت ورقة قديمة . بكيت عندما قرأتها . كتبتها عن نومي في حديقة السبكي . صادفت البستاني فسألني : لماذا تغيرت ؟ قلت له : قلمتني الايام »

من هذا يتناول الماغوط مادته . لكنه لايفرد التجربة وينظمها ، ويسددها . لايكسب من السجن مايكسبه عادة المعتقلون السياسيون . يكسب جرح الشاعر ، والشعور بالتشرد ، والانكسار ، وقربا لاينفصم ، من الفقراء . وقد يكون دخل السجن وهو على شيء من ذلك . فأثر هذا في احاطته بتجربته . يروي في مقابلة في تشرين انه وجد في بلدته مقري حزبين ، فاختار المقر القريب منه ! هل نقبل ذلك حقيقة ، لانكتة ؟ ونعيد الى حدود رؤيته هذه « اللامبالاة » ؟ على كل حال ، خرج الماغوط من السجن وموقفه محدد راسخ .

www.alkottob.com

وكم يجب ان يكون الرجل على توازن كبير ، وثقافة ، كي ينقل هذه المعاناة الحارة من مستوى الحساسية المرهفة الى مستوى الوعي ، ويرى العذاب الفردي ، رغم حرارته وتفصيله ، جزءا من ظاهرة عامة ، اجتماعية تشترك فيها مجموعة . ويميز بين الارض التي ذاق فيها القهر ، وبين الوطن الذي يحبه . كم يلزمه من الخيال والحنان ، كي ينتمي الى الوطن الذي جاع فيه وشقي ؟

يجمع الماغوط الحوادث التي يرصفها فوق ذلك الاساس الذي بدأ في السنوات الخمسين ، ايام السجن والجوع . هو على صلة بخفايا الناس . قادر ان يشد من هناك مايضعه في أطر ويعلقه على الجدران .

يتذكر مارآه ، ماسمعه ، وما يعرفه :

« رجته الام ان يطلق سراح ابنها . فقال لها : سيخرج ابنك عندما يصبح شعره ابيض ، في لون حذائي . »

جلس امامه رجل يملي تعليقا سياسيا « بالتلفون » ، وفي حضنه امرأة . تترك شابة من قريباته طفلتها الصغيرة في الصباح الباكر ، وتسافر الى مدرستها . يتوسط لها كي تنقل الى مدرسة في قريتها . وتفشل وساطته . يتذكر ان العجيلي رفض ان يوظفه في وزارة الثقافة . قال : الماغوط رجعي !

يتذكر أنه استمع في طفولته الى قربيته وهي تغني المواويل عن ابن عمها الذي لحقه البدو وقتلوه كي يسرقوا خاتمه . وتتردد امامه اغنية المرأة التي بقيت مخلصة للقتيل .

يتذكر ان عقده في العمل ألغي مرات .

قد تومض امامه فكاهة كالبرق . يرفع الحارس يده وينظر الى ساعته الجديدة فرحا بها في استعراض . كان الكلام ممنوعا . فبدأ محمد من ذلك كي

www.alkottob.com

يتحدث مع الحارس . كم حجرا فيها ؟ لا اصدق . افتحها لنعد مافيها . نعم ، استطيع ان اعيدها كما كانت ، لم يستطع ان يلمّها ، وكسب من ذلك السجن في زنزانه .

يلتقط الماغوط من الحوادث التي يتناولها من خرجه حارةً ، مؤلمة ، مفصلة ، سمة الزمن . كل شخص مغلق على من له فيهم فائدة . ولا من يهتم بحق الفقير . ماتت الفروسية ، وصغر حجم الرجل ! وبذلك يدين لناس الذين يظلون متفرجين ، والوطن الذين هم فيه .

يستند الماغوط الى وهنٍ في شروط الواقع . والى اعتراض فيه اجماع . ويجمع الى ذلك شروطه الذاتية ، ليصل الى التمرد المغلق الذي يجعله نشيده العام . ينطلق من ظواهر تعبر عن ازمة في وضع اجتماعي سياسي ، واضطراب يمنع من حل المسائل الهامة الرئيسية . في الواقع ، الدروب مفتوحة أمام الطفيلية . في الواقع حاجة وعطش الى وحدة الشعار والممارسة . كي تكون المثل حيةً في الواقع . وتكون في صورة اليسار في الممارسة ، الدفاع عن حق الناس والفروسية والتواضع . في التصور الشعبي ان المثل تصل من خلال دعاتها الذين أوقدوا فيها الحياة ، وافتدوا بأنفسهم الناس ، واستمدوا قوتهم من الاجماع . كان عمر بن الخطاب يسهر على الناس ولا يخص نفسه بمال . ولم يميز لينين نفسه بالخبز والحليب .

في التصور الشعبي ان الافكار العظيمة لاتبرر اخطاء من يحملها وامتيازاته . لذلك قيل : سيد القوم خادمهم . فالراية مسؤولية لامناسبة تفك الكوابح . منع الثائر شامل الغناء ايام الحرب . وعندما سمع صوتا ينشد مرثية لآخر الشهداء ، أمر بأن يجلد المغني . ثم عرف ان المغنية أمهُ ، والام لاتجلد . فخلع هو القائد ثوبه وامر اصحابه بأن يجلدوه بدلا منها .

www.alkottob.com

يستند الماغوط الى اساس صحيح : شعور المغبون الذي ضاع حقه . شعور المواطن العاجز . لكنه يوقد من ذلك الرفض المطلق . وتحول شاعريته النجاة الى هرب . وينسى من يرفعون شموعهم دون مواكب . لايلاحظ إباءهم . ولا يكسبون في نظره مايجعلهم يمسحون عن شعوبهم مايلطخها به المتميزون . قد يبدو الوطن أحيانا كأنه ملكية خاصة . وقد يكون الانسان مظلوما في بلده . ولكن من يستطيع ان ينتزعه منه . هو لاثريائه فترة ، وللناس ابدا . لذلك لم يبعثر الظلم الا اطراف الكتلة البعيدة عن مركزها . أما الكتلة البشرية فقاومت القهر ، واقتلعت الوطن من محتكريه .

فلما غاب في الادب شعور الانسان بحقه . لكن الاضطهاد ماكان يوصل الى الشعور بالعجز . وكان في قوة الشكوى ، الشعور بالكرامة . كان المتنبي بكبريائه ذكائه اعظم من امراء زمنه . لكنه عاش على ماهم والقرب منهم . بينما يفترض ان يعيشوا هم على رضاه . وكان يستحق الثروة والمكافأة حقاً ، لامنةً .

« أبدا اقطع البلاد ونجمي في نحوس وهمتي في سعود » ولايعبر ذلك عن المتنبي فقط . بل عن كثيرين من كبار ذلك الزمن . وعن كثيرين منا نحن الذين نعيش بعده بمئات السنين . ولكن هل ننسى قول ارغون : عندما سيعاد إنسان ما ، او فكرة ما ، اوكشف ما ، الى زمن ، سيقال ذاك من فترة الفنان ! لن يعرف الزمن بطغاته ، بل بمتنوريه .

نزفر احيانا زفرة الماغوط ! من يستطيع ان يلتقط التناقضات والانكسار الاخلاقي ويفهم زمنه ، دون ان يحس بالجرح في قلبه ! من يستطيع ان يعجن العواطف ، في سهولة ، في الفن ، ولا ينثني تحتها في الحياة ! لكن الفن يعتمد

www.alkottob.com

هذه التناقضات الشاسعة من الحزن والفرح والقلق والخيبة والامل . من الجرح والحلم .

حقا ليس الماغوط من الشعراء الذين ينتبهون الى الوجه الآخر من القمر ، والى المستقبل المضمر في الراهن . . لكننا نخطىء اذا تصورنا ان ذلك يغيب عنه . فهو يذكر السياسيين الماضين الذين كانوا ينفقون على السياسة ، ولا يرونها مصدر رزق وربح . أعطي مذكرات سعد الله الجابري ليكتب لها مقدمة . فوجد فيها الحادثة التالية . اوصى الجابري الذي عرف بالاناقة ، خياطا لبنانيا ، ان يفصل له بذلتين . عندما اتى الخياط بالبذلتين ، اعتذر الجابري منه . لم يكن معه ثمنها ! ينبهر محمد الماغوط بهذه القيمة الاخلاقية في السياسي القديم .

ويرسم محمد صورا ساحرة عن رجال جمعة بهم الخطر او الفقر . يتحدث عن محكوم بالاعدام هرب معه ، لكنه تذكر رفيقته ، فعاد الى القرية ليراها ، وهناك قتل . يروي مفتونا بالحياة ، كيف صعد الجبل مع ذلك الرجل وفوجىء عند الفجر بالرجال يتسلقون الجبل الى مطعم شعبي فيه . يتحدث الماغوط عن فلسطيني مريض بالسرطان ، يخطط مع ذلك عمليات فدائية . لكن الماغوط المفتون بالفروسية والصدق ، يرى هؤلاء صخوراً ناصعة يغرقها السيل ، يراهم وميضا في عتمة تتكاثف فوق المنطقة . وينتبه في هلع الى طوفا وحشي يقتلع القيم . لكنه لاينتبه الى القوة المضمرة في الضعفاء . والضعف المضمر في الاقوياء . فيجعله هذا الخلل يطلق الحاضر على المستقبل .

www.alkottob.com

كان هذا البعد عن الواقع ، والنظر اليه في ريبة ، في حياة كثير من الكتاب . يتناوله كل كاتب من موقعه ، وفي شروطه اذا كان مبهورا بالكمال .

لكن المغوط أسير الواقع ، لا المبهور بالحلم . يتناول منه عناصر الحزن والخوف والتشرد ، والغضب العاجز ، وينشدها . يدور في خيوطها فتتشابك حوله ويستحيل الخلاص .

يطلقه القلق في الشوارع والمقاهي ، ويضع فيه صفة المتشرد الملول . يطارده فيمشي من مكان الى آخر كأنما يخشى ان توصد الابواب عليه . فيلتمسها مفتوحة حوله للريح والشمس والشتاء .

يجلس في مقهى الروضة ليكتب . قربه مجموعة تتحدث عن اسعار اللحم . يسألونه : أزعجناك ؟ يوافق : نعم ، اكد له ذلك الضيق ، انه في عالم مجبر به . حفظ له مايريده وهاهو يمشي في الليل ، ويستمتع بأساه وتشرده ومفاجآته ، ويعرف فيه طعوما لايعرفها غيره . ويبدو تشرده بين أساه وقلقه والطبيعة التي يهواها ، كأنه درب الحرية والخلاص التي فتحها من واقعه . القمة التي يقف فيها وحيداً امام العالم الذي ينكره .

يمشي الى الربوة والمقاهي والليل وحده . والوحدة تعني الا يسمع نداء اليه . فالاصوات في الشارع والمقهى تؤكد له غربته . وتوصد عليه عالمه . وتبقيه في جو الشعر والهواجس .

-أغلق ابو شفيق مقهاه هذا الشتاء . يجب ان ابحث عن مقهى آخر اكتب فيه ،

-الا تجلس في البيت لتكتب ؟

www.alkottob.com

-لا . يجب ان اكون وحدي ،

تأمله وهو يبتعد عنك . ذابت وداعته ، وغرق في وحدته . بدأ التشرد حتى اعماق الليل ، مبللا بالمطر . يمشي ، يبتعد ، على رأسه (كاسكيت) ، في يده مظلة ، وتحت ابطه محفظة ودفتر . وامامه الشوارع . كأنه دون مأوى . قد يمر بشخص ، بمقهى ، بمسرح . عندما يعود الى البيت ، يفرد دفتره ، ويضع امامه كأسا ، ويكتب خواطر حملها من جولته . قد يجلس في شرفته على كرسي صغير . وقد يبكي والمطر ينزل عليه . وحدتة كثيفة مليئة بالبرد والحر . تجعلك دهشا تمدّ الجسور ، بين جلافته الجارحة ، وبين الرقة التي تنشره في الليل ، وتجعله مستمعا الى الشجر والمطر .

وحدته مع نفسه ، حاضرة في شكل مهيب ، ولو كان في مجموعة من الناس . يرخي عينيه فوق كأسه . يشترك فجأة بتعليق هو اعتراض جلف او نكتة . يلحق ماحوله بأذن ، وبالاذن الاخرى يلحق شعوه المرتجف .

ينطلق كأنه هارب من القصص التي فردها من جرابه ، الى الشتاء والمساء . هل يحب الليل لانه يخفي في طياته الناس ؟ يبدو لك كمن يخفي عن نفسه ، بالذكريات المرة ، اقباله على الدنيا في حرارة وبدائية . وقد تكره انت الشوارع وتهرب منها ، وتقفل عليك الجدران . هو ، يمشي فيها ، لايتركها الا ساعات قليلة وقت نوم مقتضب . يجلس في مقهى صيفي في الشتاء ، ليظل في الطبيعة . ويفرح بها . ويستمتع بالبرد والعواصف والهواء .

بدأ تشرده وهو مطارد ومظلوم . لكن تشرده اصبح فيما بعد متعة . يستعذبه كأنه سياحة في العالم المحبوب . وهرب من الواقع المرفوض . ينشده ، يؤكده ، ويترنم به .

« التثاؤب هو مركبتي المطهمة وترسي الصغيرة ،

www.alkottob.com

والاحلام كنيستي وشارعي ،
بها استلقي على الملكات والجواري ،
واسير حزينا في أواخر الليل »

يكشف له التشرد فتنة الليل . يقف على قمته ويتأمله . يتجول فيه . يقيس فيه الطرقات كأنها ملكه . يرخيه على كتفيه ، ويعشقه . ويمسك عندئذ بيديه الحياة . ويعرفها معرفة الذواقة الذي لاتكون على راحتيه ابدا عادة . ويظل يكتشفها كلما دورها أمامه . ويحفظ من الشعراء سمة الصلة بالطبيعة ، والسهر على الفجر والبرق والهواء . ويهيم فيها تحت المطر .

لكن هذه العناصر التي تفيد الشاعر في النشيد ، وتحشد له الالوان ، تحتاج الى محور تنتظم حوله . وتأخذ قوتها وضعفها من الهدف الذي تسدد اليه . الماغوط ، يمدها حوله ، كأنها بعدٌبينه وبين الكون البشري . فتؤكد ازمته . ويصبح بها مرصد الفنان اسوارا ذات رمز . فهو يقف امام العالم دون حلفاء .

يترنم في حديثه بأن مارلين مونرو انتحرت ليلة الاحد . كانت وحيدة ، هي المرأة التي لايوجد رجل في العالم الا ويتمنى ان يكون في صحبتها . كانت وحيدة ، بينما كانت أية امرأة تافهة في صحبة رجل .

يستعيد ذلك لانه مثلها ، وحيد ؟ قل من الكتاب من يعرف من الناس مثله . هو من الاشخاص النادرين الذين يستطيعون ان يتحدثوا مع المهربين والسكارى والمقامرين والحمالين والكناسين . تريد اتصالا هاتفيا خارجياً فوريا ؟ يعرف شخصاً يوصيه بك . تريد زبدة ؟ غازا ؟ . . . ترى الناس يودونه ، يحبون فيه الجلافة والبساطة والنكتة والسخرية والقرب من الفقراء . وهناك تكتشف شعورهم بأنه يعبر عن مرارتهم ويحقق لهم بالسخرية انتقاما .

www.alkottob.com

كأنهم ينتبهون الى الجزء النقدي من كتابته . ولا يتوقفون طويلا عند استنتاجه .

وحدته مرة لانه كما يقول في مقالاته كالزنبقة التي تنتمي الى فصيلة البصل بمقدار ماينتمي هو اليهم ؟ أم لانه ينكر الانتماء اليهم مجموعة . يرفضهم كلا ، ويقبلهم تفصيلا ، فلا يعترف بأنهم قوة . ويرى ، انه معهم ، امام طوفان لن يستطيع احد ان يوقفه .

اين نبحث عن سبب غضبه ، وابوابه المغلقة على الحزن كأنه كنز . ماسبب وقفته وحيدا أمام الكون ، دون سند ؟

« مذ كانت رائحة الخبز
شهية كالورد
كرائحة الاوطان على ثياب المسافرين
وانا أسرح شعري كل صباح
وارتدي أجمل ثيابي
واهرع كالعاشق في موعده الاول
لانتظارها
لانتظار الثورة التي يبست
قدماي في انتظارها . . .
ولكن ،
اذا لم تأت
سأعض شراييني كالمراهق
سأمد عنقي على مداه
كشحرور في ذروة صداحه

www.alkottob.com

وأطلب من الله

ان يبيد هذه الامة . »

من اسباب غضبه اذن ، ان الامة لاتثور على ماينزل بها من ظلم . هنا ، باب موصد آخر . فالامنية محكومة بالرؤية التي تمنعها وتحبطها . تحمل في قلبها عجزها . وبين الحلم الصادق بالثورة ، وبين الامنية المجنونة بأن تباد أمة ، تناقض عظيم . يطفىء ما اوقده من الشوق اليها . ويستثني الشعر من مسؤوليته في أن يوقظ الرغبة بها بالوعي واللهفة ، اذا جعلها نشيدا يدور في البيوت . فيبدو الشاعر كالمراقب الكسول ، المنتظر السلبي الذي يتكىء على عرض الشارع في انتظار تبدل لايؤمن به .

حلم الماغوط بالثورة محدود بشروط برؤيته . فيه الى الشوق ، الشك ، والسخرية .

« ايها العلماء والفنيون

أعطوني بطاقة سفر الى السماء

فأنا موفد من قبل بلادي الحزينة

باسم أراملها وشيوخها واطفالها

كي تعطوني بطاقة مجانية الى السماء

ففي راحتي بدل النقود . . دموع

لامكان لي ؟

ضعوني في مؤخرة العربة

فأنا قروي ومعتاد على ذلك

لن أؤذي نجمة

ولن أسيء الى سحابة

www.alkottob.com

كل ماأريده هو الوصول
باقصى سرعة الى السماء
لاضع السوط في قبضة الله
لعله يحرضنا على الثورة »

يتنقل الماغوط في حلمه بالثورة ، او التبدل ، بين الشوق اليها ، وبين الشك فيها . لانه ينكر الحركة في المجتمع البشري ، وينكر القوى التي تقرب ذلك التبدل اوتنسجه . لانه يرى الثورة في المطلق الشعري . يقول الماغوط :

« وانني مع اول عاصفة تهب على الوطن
سأصعد احد التلال
القريبة من التاريخ
واقذف سيفي الى قبضة طارق
ورأسي الى صدر الخنساء
وقلمي الى اصابع المتنبي
واجلس عاريا كالشجرة في الشتاء
حتى أعرف متى تنبت لنا
اهداب جديدة
ودموع جديدة
في الربيع . »

ويقول لير منتوف :

« لا ، اذا صدقت أملي
سأنتظر مستقبلا افضل .
سأكون ، رغم البعد ،

www.alkottob.com

قريبا منك بالفكر

سأتابعك عن بعد ،

تائها على الشاطىء الآخر .

واذا عصفت بك عاصفة

نادني وسأعود . »

(الجزء ١ ، ص ٥٥٦ ، الطبعة الروسية ، قصيدة دون عنوان ، كتبها الشاعر بالفرنسية)

ولنقارن الماغوط بهذا الشاعر الروسي في المساحة التي ينشد فيها عناصر الماغوط ، الوحدة والحزن ، وهو بين قوة القيصر ، وغفوة الشعب الذي لم يحتشد حول انتفاضة النبلاء الروس . يقول لير منتوف :

« اعيش كأني سيد السماء

ولكن وحيدا في كون جميل . »

« ص ٢٤٥)

بعد مئة سنة تقريبا يقول الماغوط :

سأقف على موجة عالية

كما يقف القائد على شرفة

واصرخ

انني وحيد يالهي .

اية قوة في وحدة لير منتوف ، وهو يشعر بأنه محاط بمدى ، بأنه سيد ، ماحوله دونه ، وانه لذلك وحيد وحدة المتنبي الذي يعلو على الصغار في زمنه . يشعر بأن الكون جميل ، ويفتح عينيه ، ويتأمله . في وحدة الماغوط نسمع

www.alkottob.com

صرخة الممزق الذي يتناول عناصر زمنه التي يعترض عليها ، الشرفة والصراخ والالة . .

يقول لير منتوف :

« القلب الفارغ يخفق في رتابة »

ونرى هذا الحزن سمة في الكتاب المخلصين ، حزنا شرعيا على الحياة الضائعة ، على الانسان .

« القلب الفارغ يخفق في رتابة »

لايخفق في رتابة ، القلب الحي . ولو كان الزمن على مشارف الخلاص . فماذا نقول اذا كنا شهود المجازر والقتل . والنشرة اليومية تنقلنا الى جنوب لبنان والخليل . فنشعر باننا أقرب الى الانسان القادر على البكاء . ونرتاب في الفرح الصافي ، ونرى فيه اشارة الى البعد عن الناس . لانستطيع ان نقبل التفاؤل اذا كان فرحا ومرحا يبعد الانسان عن الام البشر ، ويجعله يستخف بها . فنشك في تلك الثورية ونراها رداء سهلا ، لانتيجة معاناة . في زمننا ، وفي الزمن القادم ، تصح كلمة لير منتوف : « القلب الفارغ يخفق في رتابة » . ونرى الاسى فيها محرضا على خلاص الانسان من القهر ، يطلق الشوق الى الجديد النضر .

يتحدث لير منتوف مع شجرة فلسطين التي راها مزروعة في القفقاس . يراها منفية عن وديانها وسهولها ، عن مياه نهر الاردن ، وجبال لبنان . ويحزن على الرجل الذي حملها معه ذكرى من وطن اضطر ان يتركه .

من اتى بك الى هذه الارض ؟

هل كان كثير الحزن عليك ؟

هل تحملين آثار دموعه الحزينة ؟

www.alkottob.com

في حزن لير منتوف موقف واضح . هو عداوته القيصر والظلم . ولا نراه يخلط بين جانب وآخر يناقضه . يتألم من الركود وغياب الرد على البنية المستبدة .

أرنو في أسى الى جيلنا
مستقبله فارغ او مظلم ،
بينما هو يشيخ في عطالة
تحت وطأة المعرفة والشك
نحن ، ياللخجل ، لانبالي بالخير والشر
نذبل في بداية فتوتنا ، دون معركة
أمام الخطر ، ياللعار ، جبناء .
وامام السلطة ، عبيد حقيرون .
كالثور الهزيل الذي نضج قبل الأوان
معلق بين الازهار ، كاليتيم الغريب ،
لايفرح الذوق ولا العيون ،
ساعة جماله ، هي ساعة سقوطه .

(ص ٤٤٢)

كان ذلك الزمن مرا . فالثورات حتى ذلك الزمن تلتهب وتنطفىء . تؤسس العدالة الانسانية ، لكنها لاتنجزها . لذلك كان للاسى اساسه الارضي . والضيق الذي عبر عنه لير منتوف ضيقٌ بحياة دون حركة ثورية . فيه شوق الديمقراطيين الروس الى كسر الحياة القديمة . وهو حزن من كان شاهدا على قمع تمرد النبلاء الثوريين الروس ، ولايزال بعيدا عن ثورة العمال الروس . لهذا يطلب الشراع العاصفة :

www.alkottob.com

تحته جدول أصفى من اللازورد ،
وفوقه شعاع الشمس الذهبي
اما هو فمضطرب يطلب العاصفة
كأنما . في العواصف طمأنينة .

(ص ٣٩٠)

في ضوء هذا الشوق الى العاصفة ، نفهم غضبه الناري على الشعب الذي لاينزل عن ظهره حكامه وجلاديه . ونظل نرى في غضبه جانبين متمايزين في تناقض ، يلتزم لير منتوف بأحدهما . يقول وهو في طريقه الى منفاه في القفقاس : وداعا ياروسيا الوسخة ،

يابلد العبيد ، يابلد الاسياد ،
وانت ايتها الملابس العسكرية الزرقاء
وانت ايها الشعب المخلص لها ، الوداع
وراء جدار القفقاس ، قد أختبىء
من باشواتك ،
من عيونهم التي ترى كل شيء ،
ومن آذانهم التي تسمع كل شيء .

(ص ٥٢٤)

اين المفر من الواقع المر ؟ لامفر ! تحكم البحث عن الخلاص عند الماغوط رؤية الشاعر الذي ينكر الطبقة والوطن والعصر .

رده الغضب ، والسخرية اللاذعة ، والحزن ، والهرب الى رقعة صغيرة من الماضي المطلق ، المعلق في حضارة ما ، الى الريف ، الى ارصفة اوربا ، واليأس . دروبه كلها هرب في سفينة او قطار . نجاة فردية لايقدر

www.alkottob.com

عليها شاعر . يقدر عليها رجل اعمال زكي ، غير مؤهل للشعور بالحزن والحنين الى زوايا بلدته المحفورة في حياته .

خلاص الشاعر الممكن ، صلته بالمجموعة البشرية . شعوره بالعلاقة المعذبة بين الحاضر وبين الحلم . عندئذ لاتحمل الحزن « ملايين القطارات المسافرة التي تلهث بين الحاجبين . » عندئذ يبقى الشاعر مثل شجرة خضراء ، ولا يخجل بالارض التي نبت فيها . ولايرى فيها الذل ابديا . ويكون غريبا عن الراهن ، قريبا من المضمر المتمرد فيه . وتكون الشاعرية الرومانسية صفة واقعية ، شعورا بالقادم الجديد .

يهرب الماغوط من الزمان والمكان .

« لقد جئت متأخرا الى هذا العالم ،
كزائر بعد منتصف الليل ،
كان يجب ان اخلق مع اولئك الرومانتيكيين القدامى ،
ذوي اللحى المتهدلة
والياقات التي يأكلها العت . »

(ص ١٨٣)

يمر في هربه بالماضي . وتتنوع طرق الفنانين الى الماضي . وتحكم عودتهم اليه عواطف متباينة ومواقف مختلفة . فقد تكون حنينا الى حياة دافئة ، او ذكرى وضع ماعاد موجودا ، غربة عن الحاضر ترفع امامه معايير الماضي . يحكم الصلة بالماضي الموقف من الحاضر والمستقبل . فالصلة الواسعة بالماضي ، التي تلم ضوء العصور ، صلة بالمستقبل والحاضر ، تجمع في حنان ماينجزه الانسان وما يبدعه .

وقد تكون هذه المسألة حادة في الشرق لان الماضي مقدس ، والجديد

www.alkottob.com

خروج عليه . فيه قفزة الى العصر الذي نبدوغرباء عنه . وفيه كسر الحاجز الوطني . فيه غربة لانه لاينمو في هدوء في رحم الماضي ، وانما يظهر كأنه ضده .

هرب الماغوط الى الماضي خاطف . فالماضي عنده ليس مطلقا في ماضي امة . هورقعة صغيرة ، فيها بعض المقاهي والشوارع الهادئة ، والليالي الرطبة . تحيط بها غوطة . لاتهزها ازمات حادة ، اوتوسع مفاجيء ، اوزحف من سكان الارض المحتلة ، اوحرب .

عودته الى الماضي ، كالحنين الى صدر الام . لكن الماغوط ليس ممن يحملون ذلك الحنان مع الانتماء الى الحركة المستمرة في الدنيا البشرية . وهو يؤكد بعده عن هذا الموقع بما يراه من الفجاجة في الصيغة الفكرية الجافة التي تجعل المستقبل أملس ، جامدا . وتجعل الدعوة اليه دون فتنة وابداع . وتنفي فيه انه تطلع وشوق وفضول ، وشباب يشدنا اليه رغم دفء اشيائنا وزخارفنا . واننا فيه وفي انتظاره قامة تلمس التراب والسحاب . لكننا يجب ان نضيف الى ذلك اننا في زمن لايعني فيه الحاضر تفوقا مطلقا على الماضي . ليس فيه المستقبل واضحا على راحة الكف . ولا نتبين في وضوح صناعه . فهل يستطيع الماغوط ان يدخل الى تلك الشبكة من التناقضات ؟

يسقط الماغوط في ازمة ، عندما يعود الى الماضي برهة . فهو لايجد بنيانه الراسخ هناك . ولايبقيه فيه انتماء . يرفض الماغوط الماضي ، اذا كان مشتركا بين مجموعة من الناس . يصغرّ هنا ملجأه ، ويبقيه تحت ظلال الشجر ، في الريف ، في زقاق . الماضي هو اشياؤه ، يلمّها ، يضعها في كيس على كتفه ، ويرحل .

www.alkottob.com

هربه الخاطف الآخر ، من المنطقة :

« ياأرصفة اوربا الرائعة ،

ايتها الحجارة الممددة منذ الآف السنين ،

تحت المعاطف ورؤوس المظلات ،

اما من وكر صغير ،

لبدوي آت من الشرق ،

يحمل تاربخه فوق ظهره كالحطاب . »

في هذا الهرب ايضا هو في ازمة . لانه يجد المهرب الذي لايقدر عليه .

يهرب إذن من العصر :

ايها العصر الحقير كالحشرة ،

يامن اغريتني بالمروحة بدل العواصف ،

وبالثقاب بدل البراكين ،

لن اغفر لك ابدا

سأعود الى قريتي ولو سيرا على الاقدام

لانثر حولك الشائعات فور وصولي

وارتمي على الحشائش وضفاف السواقي

كالفارس بعد معركة منهكة

يهرب باحثا عن ارض :

كلما لامسها كوخ او قصر

امير او متسول ،

وثبت جامحة في الهواء ،

كالفرس الوحشية اذا مسها السرج

www.alkottob.com

لكن تلك الارض لم توجد ، ولن توجد الا في دفاتره . لذلك يعلن الغضب :

حسنا ايها العصر ،

لقد هزمتني

ولكني لاأجد في كل هذا الشوق

مكانا مرتفعا

انصب عليه راية استسلامي .

بنيان . حجر فوق حجر . يرى الصراع فوضى فيرفض العصر . لذلك تصبح وحدته فاجعة ، فهي وحدة امام الكون البشري .

تقع حلول الماغوط امامه ، ويبقى في محطة الحاضر . يمكننا ان نلخص ازمته في هربه الكبير من الطبقة والوطن والكون ، الذي يجعل كل غضب يرفعه الشاعر على الظلم ، وكل شوق يطلقه الى الثورة ، نداء في ارض قفر . لان الصرخة لاتحط في يد مجموعة ، في وطن .

التناقض المحوري في الماغوط ، انه يحب الفقراء المظلومين ، لكنه لايراهم قوة . يحب الوطن ، ويحتقره . يشعر بالواقع شعورا حساسا ، لكنه لايملك الرؤية التي توضح له الحركة فيه . يفهم الثورة فهما شعريا غامضا . لايفصل بين القوى المتمايزة . لذلك لايستطيع ان يرصد الخطوة التائهة عنها ، او المتجهة اليها ، والحجر الذي يوضع دونها ، والحجر الذي يصلح ان يكون اساسا فيها . ازمته انه شاعر مرهف يخرجه هم الناس الى المنطقة العامة ، لكنه هناك يتوه وتعجز بنيته الفكرية عن تفسير مايغوص فيه . كل مايستند اليه ، ويلتقطه صحيح . واكثر مايستنتجه غلط .

يقول الماغوط في الوطن :

www.alkottob.com

مادامت الحرية في لغتي ،
على هيئة كرسي صغير للاعدام
قولوا لهذا التابوت المدد حتى شواطىء الاطلسي
انني لاأملك ثمن المنديل لارثيه .
من ساحات الرجم في مكة
الى قاعات الرقص في غرناطة
جراح مكسوة بشعر الصدر
واوسمة لم يبق منها سوى الخطافات
الصحارى خالية من الغربان
البساتين خالية من الزهور
السجون خالية من الاستغاثات
الازقة خالية من المارة
لاشيء غير الغبار
يعلو ويهبط كثدي المصارع
فاهربي ايتها الغيوم
فأرصفة الوطن
لم تعد جديرة حتى بالوحل (ص ٢٧٤)

هل يجرح هذا الغضب من يبيع الوطن ولايبالي به ؟ بل يجرحنا نحن ، الذين نظن اننا نترك وسط غيومه نفساً من الحب . يروي ذلك التمرد المجنون ضجرنا بالماضي عندما نستر به سكون الحاضر . وضجرنا بالحاضر الذي نحتمل فيه الذل في غرور . لكن هذا الغضب يحرق مكانه ، ويحرق السوق والجذور .

www.alkottob.com

يقـول المـاغوط في مقالته « الحل » : « منذ الغد سأدهن جلدي وهويتي وعـائلتي . . . وادهن كل من يقف في طريقنـا حتى نصـل الى اقـرب غابة . وهنـــاك سأعلق في كتفي قوســا وجعبــة سهــام واصـرخ متنقـلا بين الجبـال والوديان ، وكل من يذكر امامي بعد ذلك كلمة قضية اوعروبة سأناوله سهما في حلقه . »

لايتمـرد المـاغـوط على الـرؤيـة القـديمة التي تقدم التاريخ كأنه قطعة متـماسكـة ، لاتـاريـخ صراع . يقبلهـا كي يراه من صنـع الامراء . وينكر ان الحضـارة صيـاغـةُ السـواد من الناس . خلقها صناعهم ومعماريوهم . ويجعل غرنـاطـة ، الاثـر المعماري الجميل ، بلد المكتبات والمدارس والطرقات الاولى المعبدة المضاءة في الغرب ، قاعات رقص سوقي .

لعـل المقـارنـة بين محمد الماغوط وبين غيره من الشعراء الذين عاشوا في زمن ليس اكثر اشراقا من زمننا ، تبين لنا هنا ايضا ، مايفعله تباين المواقف والرؤية .

رأى المـاغـوط وطنـه تابـوتا ممددا حتى شمال الاطلسي . بينما رأى ناظم حكمت ، تركيا التي سجن فيها سنوات طويلة ، وطنه ، له :

« انـه لنـا ، هذا الوطن الذي يطاول شاطىء البحر الابيض ، كرأس فرس مقبلة خببـاً من آسيلة القصيـة » . هل أحب شاعـر وطنـه لانـه نظيف مرتب ، ولان مسألـة العـدالة والحرية وجدت حلها فيه ! رأى اراغون وطنه ، بلد فيكتور هوغو وبيكاسو . كان مطاردا فيه يوم انتقل من مخبئه ليدافع عنه من الهجوم النازي . يقول لير منتوف الذي عاش عمره القصير ايام العنف القيصري :

www.alkottob.com

أحب وطني
لكن حبي له غريب
لا يسوسه عقلي .
فلا المجد الذي دفع ثمنه دما
ولا الاساطير الموروثة من الماضي السحيق
تحرك في مشاعر الفرح .
لكني ،
لاأدري لماذا ، أحب
صمت برارية البارد ،
وحفيف غاباته التي ليست لها حدود .
وفيضانات انهاره التي تشبه البحار
وفي مساء العيد الندي ،
انا مستعد لان اتأمل حتى منتصف الليل
الرقص الذي يرافق دبيب الارجل والصفير
على صوت الفلاحين السكارى .

ترك الشاعر الداغستاني محمود ، وصية يقول فيها :

« اهيلوا قليلا من التراب على قبري ، كيلا تسد اكوامه سمعي . كي تصل الى اذني وقلبي ، اغنيات جبالنا في القرية . » (بلدي ص ٣٧٤)

وانحنى الشاعر الوطني شامل ، في حنان على وطنه ، وهومهزوم فيه وكتب : « يارجالي الجبليين ، احبوا صخوركم العارية المتوحشة . لقد جلبت لكم جبالكم القليل من الخير . لكن ارضكم دون هذه الصخور ، لن تكون

www.alkottob.com

ارضكم . ودون ارض لاحرية للجبليين الفقراء ، قاتلوا من اجلها ، وحافظوا عليها . وليهدهد صليل سيوفكم نومي الابدي ، » (بلدي ص ٢٨٦)

قد يحل الانتماء الواسع ، فقط ، علاقة الانسان المعقدة بالوطن الذي يوجد فيه ترتيب طبقي ولاتجد فيه مسألة العدالة الاجتماعية حلا . فيحمل ناظم حكمت مدينته مع ما فيها من مؤلم وعزيز .

مدينتي الحقيقية ، استانبولي ،
المدينة التي تسكنين فيها ياحبيبتي
المدينة التي احملها على ظهري وفي جرابي
من منفى الى منفى ، ومن سجن الى سجن
المدينة التي احملها في قلبي كما يحمل الخنجر .

علاقة الماغوط بالوطن ، من هذه الصلة المعقدة . لكنها دون الدواء تبدو في الظاهر رفضا ساخرا ، ونتبين فيها الدموع .

يقول :

« ولكن أي وطن هذا الذي يجرفه
الكناسون ، مع القمامات في آخر الليل . »

ويقول :

« سأبكي بمرارة ،
واعض الارض التي اهانتني
سأغرس اسناني حتى اللثة
في السهول التي شردتني . »

ويقول :

« انها مدينتك يامولاي .

www.alkottob.com

- مدينتي ؟ لا مدينة لي سوى جيوبي .

- مدينتك وطنك . .

- وطني ؟ لا وطن لي

سوى هذه البقع والخربشات على الخرائط »

قد يهرب الوطن من الادانة ، في رقعة صغيرة من الريف يحميها حنان ما . فتكاد تجد الصلة بين سلمية الماغوط وبين مدينة ناظم حكمت . فالسلمية هناك لايسقطها تجاور الاضداد . ولا يولع الرغبة في الهرب منها ، الحزن .

محمد الماغوط في الوطن ، مصلوب على خشبة . عندما تتذكر العصافير ، العصافير . وتتناول الفتاة اول ثيابها الصيفية . ويفتح الانسان شباكه ويصبح في سماء زرقاء واشجار ، يشعر هو بالغم . « لاأحب الطقس الجميل ، يشعرني بالحزن » ويبدو الشاعر عاجزا دون وطن ، وتختلط مع دموعه نقمة .

« عندما انتزعوني من سريري الغافي ،

وانا اغط كفراشة على زهرة

تشبثت بجدرانها ،

بحلقات ابوابها

بلحى شيوخها ، واثداء نسائها

وانا انظر اليها باكيا متوسلا . . .

قلت لها عطشان يادمشق ،

قالت اشرب دموعك . . .

كيف اهجرها

www.alkottob.com

وقدماي منغرستان في ارصفتها . .

مامن حصاة في الطريق

الا وقذفتها بقدمي

مامن صنبور ماء في حاراتها الضيقة

الا وشربت منه بفمي

مامن حارس ليلي او بائع صبار

في لياليها المقمرة

الا وسامرته وسامرني

مامن مزلاج في ابوابها العتيقة

الا وداعبته بجبهتي واصابعي

ولكن مامن باب مغلق فتح ذات ليلة

وقال اهلا ايها الغريب .

اضربوها بالسياط

اطردوها من الابواب

والكتب والحانات والاعراس والمآتم

واغلقوا في وجهها كل أبواب العالم

لتظل وحيدة كالريح . . كالله

ولكن ،

اسملوا عيني قبل ان تفعلوا ذلك

انني احبها يارجال . . . »

يجتمع جانبا هذه العلاقة المعقدة في قصيدة اخرى :

« آه كم اتمنى . . لو استيقظ ذات صباح

www.alkottob.com

فأرى المقاهي والمدارس والجامعات

مستنقعات وطحالب ساكنة

خياما تنبح حولها الكلاب

لاجد المدن والحدائق والبارلمانات

كثبانا رملية

آباراينتشل الاعراب ماءهم منها بالدلاء

آه

كم اتمنى لو أكون في هذه اللحظة

محموما في قرية بعيدة

على سرير غريب

وتحت سقف غريب

وامرأة عجوز لم تقع عيناي عليها من قبل

تسألني

وهي تعصر منديلها المبلل فوق جبيني :

من أي بلاد انت يابني ؟ فأجيبها والدموع تملأ عيني :

آه ياجدتي . . . » . (ص ٢٤٦)

نكاد نضع ذلك المنديل على جبينه . فأساه يوقظ فينا الغربة عن الواقع الرث . نظنه صوتنا نحن . ولانشعر بالبعد عنه الا عندما يصبح مرصوفا في استنتاج ورؤية . مع ذلك نتذكر ان ناظم حكمت ترك رغم ماعاناه ، هذه الوصية لابنه : لاتعش في الدنيا مستأجرا

كمن جاءها ليصطاف

عش دنياك كأنها بيت ابيك

www.alkottob.com

ثق بحبة القمح ،
بالارض ،
بالبحر ،
ولكن ثق اكثر من ذلك بالانسان .
أحب الغيوم
الآلة
الكتاب
ولكن احب اكثر من ذلك الانسان
اشعر بحزن الغصن الذي يجف
بحزن النجمة التي تنطفىء
بحزن الحيوان العليل
ولكن اشعر قبل ذلك . بحزن الانسان
كل نغمة في الارض تعطيك الفرح
النور والظلمة يعطيانك الفرح
والفصول الاربعة تعطيك الفرح
لكن اعظم مسراتك الانسان .

يغيب عن الماغوط الناظم الذي يرتب ويفسر الظلم . فلا يرى فيه سمة طبقيـة ، بل سمـة وطنيـة . يراه في تاريخ قديم ، وفي مستقبل قادم . ويستند الى قصص من التاريخ العربي ، كي يؤكد ان العلة في العرب . ولاينتبه الى ظواهر مثلها في مجتمعات غير عربية (ايها العرب ، ياجبالا من الطحين واللذة ٦٩) (أسـير بقـدمين جريحتين ، والفرح ينبض في مفاصلي ، انني اسير على قلب أمه ٥٥)

www.alkottob.com

ولانعرف في المجتمعات الانسانية سمات من الذل ابدية . ولايقبل ادعاء بأن الذل ينبت في الارض العربية ، فذلك يخفي سمة الطبقة التي تنهض ، والطبقة التي تقمع .

قد تستند الشعوب الى تقاليد ثورية ، وامكانيات مناسبة . لكن عصرنا يعرف التمرد عدوى تنتشر كالنار . وتختفي فيه صورة الانسان الذي يغرر به بالخرز والبلور . وها نحن شهود مقاومة عربية بقيت اشهراً في محور العالم ، وشهود انتفاضات في قلاع الرجعية العربية .

هل سبب الخلل في استنتاجات الماغوط انه يبقى عند الجانب السهل ، عند الانطباع الشعري ؟ لعل اعترافه بأنه لم يقرأ مبادىء الحزب الذي انتمى اليه في اول فتوته ، يشير الى شيء من الرغبة عن التفسير والتصنيف . او مايسميه بعض الكتاب وهم يرفضونه في تعال : التنظير . لذلك قد نرى فيه أمية كما نرى فيه انتقاء واختياراً .

جعل هذا الخلل الماغوط يتناول الظلم في مستوى المطلق . ولا ينسبه الى القوى الاجتماعية او الوضع الذي عبر عنه . لذلك يأخذ الظلم صفة الخلود والشمول . يحب الماغوط الفقراء ، ينتسب اليهم ، يجعلهم مادته وابطاله ، ينشر ألمهم وشوقهم . لكنه لايثق بهم قوة تتحرك من الغفلة الى الوعي . ومن الضعف الى القوة . يلغي القوى السياسية ولا يراها تيارا ذا صلة بصفة اجتماعية . يشعر بالظالمين وبالمظلومين . لكنه لايضع ذلك في مكانه من حركة دائمة وصراع بين بنية وبنية . ويساوي بين الاضداد . فالظلم في الاشتراكية وفي الرأسمالية . في الامس وفي اليوم وفي غد . .

في طريقته الفنية في الشعر ، يجمع مالا يجمع . فتتوهج الصورة الشعرية . لكن تلك الطريقة الفنية تتحول في المقالة الى وظيفة فكرية

www.alkottob.com

مباشرة . لذلك يبدو شعره اجمل من نثره . في الشعر يغني ويرسم ، لكنه لايوغل في التفسير والاستنتاج . ويخفيه بالالوان . نسمع في شعره الاسى والحنان . ونقبله وهو يلتم على نفسه فوق قمة موجة ، او يشرد في طريق دون اشجار . لكننا لانراه هناك كما يبدو في نثره ، وهو يساوي بين الاضداد . يقول : « كل طبخة سياسية في المنطقة ، أمريكا تعدها ، وروسيا توقد تحتها ، وأوربا تبردها ، واسرائيل تأكلها ، والعرب يغسلون الصحون . » (المستقبل ١٩ شباط ١٩٨٣)

ينفرد الخلل في رؤية الماغوط ، في المقالة الاسبوعية التي لابد ان يلمس فيها الكاتب مسائل محددة تكشف ابعاده وحدوده . روى الماغوط في « تشرين » حاجة الى التعبير عن هموم الناس ، وهم يتدافعون في الباصات ويقفون في الافران . لكنه في « المستقبل » ، يفرد الشطر الآخر في رؤيته ، الاستنتاج ، ويعيد صياغته : لانجاة للامة ، الشر في اليمين وفي اليسار ، الانظمة الاجتماعية الموجودة على مد العين في عالم الانسان ، سواء . المواطن دون قوة ودون وزن .

يقول : « هذا كتفه مخلوع لانه قومي عربي ، وذاك زرّه مخلوع لانه قومي سوري . هذا مطارد لانه يميني . وذاك موقوف لانه يساري . هذا ممنوع من السفر لانه ناصري . وذاك ممنوع من العودة لانه بعثي . هذا ممنوع من العمل لانه . . . فاذا كانت السياسة العربية لاتريدنا ، لاقوميين ولا ناصريين ولا بعثيين . لا يمينيين ولا يساريين . لا مؤمنين ولا ملحدين . لامع الفلسطينيين ولا ضد الفلسطنين . ولا مقيمين ولا مسافرين ، فماذا تريدنا إذن ؟ عبيدا لا أكثر ولا أقل . »

www.alkottob.com

ينتهي هذا العرض بما يعجب الامي ، ويلمس قهره . دون ان يغني وعيه . وتبدو السياسة العربية مطلقة ، دون ثوب اجتماعي .

والماغوط يستند ، هنا ايضا الى وضع موجود في الواقع . هو الاصابات التي نزلت بحركة التحرر الوطني ، دخول شرائح جديدة اليها ، طريقها العام بين السنوات الخمسين والسنوات الثمانين . لكن النتيجة التي يقطفها تمنع العين ان تتبين ذلك ، وان ترى الحل بحركة قوى اجتماعية ، لا بالخروج من الامة

هيهات ان تنفصل رؤية الفنان عن الخلق الفني . فذلك مايحكم قدرته على ان يميز بين الظواهر ، او ان يتوه فيها .

في القرن التاسع عشر ، قال بيلنسكي :

«وما هو فن زماننا ؟ انه محاكمة المجتمع ، تحليل المجتمع ، وبالتالي ميت هو العمل الفني اذا كان يصور الحياة لمجرد تصوير الحياة ، دون اي دافع ذاتي قوي ينبع من الفكرة المهيمنة على العصر ، اذا لم يكن أنة ألم او نشيد فرح . . اذا لم يكن سؤالا او جوابا على سؤال . »

في ضوء هذا النقد تبدو لنا نقيصة الماغوط : انه لايسمع اصوات العصر كلها . ولا يرى سمته الرئيسية . وقد تكون مشكلة ادبنا - اذا سمحنا لانفسنا بتعميم واسع - مواقف لاتدعمها موهبة . وموهبة لا تدعمها مواقف !

هكذا يقف الماغوط دون مسألة زمننا : الوعي . وامام الماغوط ، نتبين مايبهرنا في شعر ناظم حكمت : مساهمته في مسألة العصر : الوعي . انتماؤه الى الدنيا ، وسعتها في عينيه . شعوره وهو سجين ، مهدد بالموت ، بأن الأرض كلها له :

www.alkottob.com

تعلقك بالحياة والوطن والانسان يعني
ان ترقد في قرارة السجن عشر او خمس عشرة سنة
ولا تقول :
حبذا لو تأرجحت كراية في طرف حبل
بل ان تغرز قدميك في الارض
متشبثاً بالحياة .

يعارض الظلم وهو يحفظ الوعي في نشيده ، ويوقد نارا امام اجيال معذبة مقهورة ، في الطريق الوعرة الصعبة ، بين العتمة والضوء -

يقول الماغوط :

سأتكىء على عرض الشارع كشيوخ البدو
ولن انهض
حتى تجمع كل قضبان السجون واضبارات المشبوهين
في العالم
وتوضع امامي
لا لوكها كالجمل على قارعة الطريق .

ويقول ناظم حكمت للسجين ، وهو يجعل التفاؤل في الحركة السياسيه ، حنانا يعيد الى السجين الشعور بالكون

لاتبق مسمرا على جدار
وذقنك بين راحتيك

www.alkottob.com

انهض

وانظر

الى الليل الجميل في العراء كأنه بحر الجنوب

تصطفق امواجه على نافذتك .

فهم ناظم حكمت حزن الانسان الذي يرى الظلم حوله وفوقه . لكنه فهم كذلك ، صفة الظلم الاجتماعية ، ودور الوعي في الصراع بين الاضداد . فهم ان الشاعر يعدي وينشر حالة في الآخرين . لذلك يجب ان يسوس نفسه ويضبط حزنه . فالشعر ليس غناء في حمام . بل فيه الرغبة بأن تجعل الناس كما تكون ، وتصح فيه كلمة نيرودا : « من واجب الشعراء ان يغنوا مع شعوبهم ، وان يعطوا ما للانسان للانسان ، الحلم والحب ، النور والليل ، العقل والهذيان » ذلك الواجب ليس نشرة . هو خطاب شعري حار ، فيه تقديس الانسان ، ودفعه الى الشعور بأنه ملك الكون .

تماسك الرؤية في الفنان ، وسعة نظرته الى العالم . هي الناظم في الصورة الادبية ، الذي يلتقط اصوات الزمن فيجعل الصورة الادبية واسعة وعادلة .

يقول الناقد الروسي بيلنسكي :

« من خصائص روح زمننا ان اعظم قوة ابداع لاتستطيع ان تبعث الاعجاب الا لفترة محددة ، ان هي اكتفت (بغناء العصفور) . ان هي انشأت لنفسها عالما خاصا لايجمعه اي جامع بالواقع التاريخي والفلسفي للعصر الراهن . . . لايستطيع الاديب ان يمضي بعيدا . بموهبته الطبيعية وحدها ، فالموهبة في حاجة الى مضمون معقول حاجة النار الى الزيت كيلا لاتخبو . . »

www.alkottob.com

ويقول في رسالته الشهيرة الى غوغول :

« لم تلاحظ ان روسيا لاترى خلاصها في الصوفية والزهد والتقوى ، بل في انجازات الحضارة ونجاح التعليم والروح الانسانية . وليس ماتحتاج اليه روسيا المواعظ ، فقد سمعت منها الكثير ، ولا الصلوات فقد رددتها مافيه الكفاية ، بل تحتاج ايقاظ الشعور بالكرامة الانسانية في ابناء الشعب . »

ايمكن اذن نفصل الموقف عن النسيج الادبي ؟ وها هو رؤية الصانع المعماري . في اصل المخطط الهندسي الفني ، وفي انتقاء المادة الاولية ؟

يفرد الماغوط في رهافه ، الم الانسان المضطهد . ويشعرنا بالحزن عليه . لكنه يبقى في الحدود البدائية من كره الاغنياء . فيكسر الصور التي رتبها وفردها وزخرفها ، في مفاجأة في نهاية القصيدة تؤكد عجز الانسان . وينكسر الحلم والشوق وماتثيره القصيدة من أسى . وينكشف هناك تقصير الرؤية ، وضعف الخط الناظم .

سخرية الماغوط مره ، لكنها موظفة في الشك . تمحو في خفة صراع الاطراف المتناقضة ، والشوق الى تبديل الواقع . وتنفي الحلم الباهر .

يضيء لنا موقف الماغوط ، طريقته الشعرية . يفسر لنا ايتكاره وسحره ، وهو يجفلنا ويبهرنا بجمعه بين الصور المتناقضة . ويفاجئنا بالنتائج الصاعقة في نهاياته . ويوهمنا بأنها النهاية المغلقة مفتوحة ، في شكل حرية مطلقة .

اليس ذلك الجوار بين الضحية والجلاد ، والسوط والزقاق ، والزهور والدموع ، من رؤية تجمع كل شيء ، وتساوي بين النقيض والنقيض . ومن حساسية مرهفة شعرية ، تلتقط التناقضات في سخرية ، وتحد لها المصب الذي تلتقي فيه ، في رؤية الجوار والمساواة ، لا في رؤية الاضداد في الصراع .

www.alkottob.com

لذلك يبدو لنا الانسجام بين رؤية الماغوط الفكرية وبين شعره ، قمة . فالنتيجة المفاجئة الساخرة المتمردة ، تجر مافرده من صور شعرية مليئة بالحزن او التمرد او التناقض ، بعيداً عن وعي الصراع الذي يفسر كل ماقدمه . هناك يوصد باب الخلاص ، حتى عندما يبدو في وضع من ينشر التناقضات في صدق . ويقصفها بالسخرية او الشك .

نزرع في الهجير ويأكلون في الظل
اسنانهم بيضاء كالارز
واسناننا موحشة كالغابات
هم يملكون الاوسمة
ونحن نملك الوحل
هم يملكون الاسوار والشرفات
ونحن نملك الحبال والخناجر
والآن ،
هيا لننام على الارصفة ياحبيبتي . (٢٦٢)

يصل الى وضع محدد ، عرف فيه السبب والحل . واذا به يفلت منه الى الامة التي يتساوى فيها الفقير والغني ، والضحية والجلاد . فلا يدعوها كي تتحدى الظلم ، بل يتركها ويمشي مشردا حزينا .

انظر خلسة الى الشرفات العالية ،
الى الاماكن التي ستبلغها اظافري واسناني ،
في الثورات المقبلة ،
فأنا لم اجع صدفة ،
ولم اتشرد ترفا او اعتباطا ،

www.alkottob.com

مامن سنبلة في التاريخ ،
الا وعليها قطرة من لعابي ،
اعرف ان مستقبلي ظلام ،
وانيابي شموع . . .
وما من قوة في العالم ،
ترغمني على محبة مالا احبه ،
وكراهية مالا اكرهه ،
مادام هناك ،
-تبغ وثقاب وشوارع .

تلمس السيدة سنية الصالح ، عفويته وصوره الجامحة . تقول « وقد لعبت بدائيتـه دورا هامـا في خلق هذا النـوع من الشعـر ، اذ ان موهبتـه التي لعبت دورها بأصالة وحرية كانت في منجاة من حضانة التراث وزجره التربوي . »

لكن البـدائيـة التي لمستهـا في شعـره ، وصوره المفاجئة ، جمعه المألوف الى غير المألـوف ، جدّة لا تفسـر بالجـدة . لابد لها من اساس تستند عليه . هذا الاسـاس هو حسـاسيتـه وصـدقـة ، واميته ، ورؤيته الفكرية ، اصراره على التشـرد « دون » طبقـة ، دون ارض ، دون انتـماء واع الى طرف . ولعلنا هنا ايضا نرى التناسق بين ذلك كله وبين شعره المرسل الذي نرى فيه رقة الماء وقسـوة الحجـر . ونرى فيه التمرد على الصياغة . والجوار بين لغة تجمح نضرة مرة ، وتأسرها مرة « ان » و « قد » . لذلـك لانـرى الحكم التـالي في ابداعه صحيحـا : « محمـد المـاغـوط من ابـرز الثـوار الذين حرروا الشعر من عبودية

www.alkottob.com

الشكل » فكل شعر موهوب ينتسب الى شكله في علاقة التفاعل لا العبودية . والماغوط ما كان ممكنا قبل ميلاده بمئة سنة . وهو انما يأتي في زمنه ، بعد الشعراء الذين عملوا في صنعه الشعر واللغة العربية الجديدة . ويأتي شعره في صلة بفكرة .

ماعظم مانطلبه من الفنان والشاعر ! نطلب ان يخفق فيه الهمس والغضب . ان يكون ماردا وعذبا . ان يفهم انكسار المثل ، وان يحفظ بريقها . ان يبقي امامه العشب والورد المخملي ، اريج المدينة وحركتها الخفية ، ولولفّت كل ذلك العتمة المترامية . نطلب منه اكثر مما نطلب من السياسي ، لانه صوت الناس الخالد المنتشر . نعترض اذا اخطأ . ونعترف ، مع ذلك ، بحقه في ان يتألم ، وان يكمد كما يتوهج . ونطبق عليه معاييرنا الصارمة دون حذر . مع ان المعايير التي نقيس بها شخصياته هي معايير العالم الفني الرحب ، العنفوان والبشرية . ندين الماغوط باضطرابه الذي ينشره ، وكل منا يعرف مايحس به في الليلة الظلماء ، والعمر مهدور ، والغضب لايجد جدوله فيرتد كالسيف الى حامله .

ولنلمه ! اذا بكى في الليل على الناس ، حتى سد فتحة العين على الافق . وغاب عنه مامشاه البشر في الارض الوعرة نحو الحلم . وحركة الانسان الدائبة في الانفاق وعلى السطح . ولنقف امامه اذا وصل الى ارض الضياع . ممنوع ان يطأها . ممنوع ان يرمي البشر في حفرها !

كم مرة قلنا آه ، لوولدنا في ارض اخرى ، وكنا مواطنيها ! لكننا من هذه الارض الشائكة الدامية . من الشرق الخابي المشتعل ، الغني الفقير ، الصامت المضطرم ، ذي الآفاق المغلقة والمفتوحة ، المليء بشروط التمرد والغافل عنها ، الذي يجمع الآلة الحديثة الى معاقل التخلف ، والتبذير

www.alkottob.com

والفجـور ، الى الفاقة والتعصب . نجعله في القلب ، على الكتف ، ونكون في سجنه ، وفي افقه

لعلنـا ، بعـد ذلـك ، لانسجن المـاغـوط في حكم يراه فقـط معبرا عن الـتردد الصغـير والغصـة والشـك والهـرب . ويـراه أسـير الـواقـع في ظاهـره وسطحه . بل نلمس فيه ايضا انه يردد ما في الارض الشعبية الامية . خشيتها من المستقبل ، وشكها في القوى السياسية . وتوجسها من التبدل الذي تريده لانهـا تضيق بحيـاتهـا الصعبـة . ولا تريده لانها تخاف المجهول الذي يهز حياة ألفتها . وانه يردد ايضا ، رأيا واسعا في الواقع الذي ليس فيه اليسار قادرا على ان يلوي بتجمعه طفيلية مبتذلة وشرسة . وهو فيه مستهدف بالقمع والتصفية والحـرب الصـامتـة . ممزق او حليف دون قوة . كما يردد المـاغـوط ضيقـا نفـذ صبره ، بوضـع يزداد فيـه الفقـراء فقـراً والاغنيـاء غنى . فيمتـع القطـاعات الواسعة الناقمة عندما يلمس ظاهرة يظهر فيها اليمين في حلة اليسار ، ويصعد فيها الى قمة من التبذير والبذخ تجمح على الخيال . ويجمع الماغوط السخرية المـرة القـاطعـة التي تتردد في مجمـوعـات اجتماعية ترفض الواقع الراهن كله ، بعضها يريده ان يميل نحو اليمين . وبعضها يريده ان ينقلب الى يسار ما . لكنها لاتتحرك لتبدله .

www.alkottob.com

قـــراءة في قصَص

عبـــد اللّه عبـــد

في الخمسينات ، نشر عبد الله عبد « الشريطة الخضراء » في مجلة الثقافة الوطنية . بقيت في الجونكهة تلك القصة زمنا ، وشدت الانتباه الى الكاتب الجديد . لكن ماتلاها من نوع الابطال ، ورقعة الحياة المضاءة ، هو الذي حدد صورة الكاتب ومكانه بين كتاب القصة .

بدأت رحلة عبد الله عبد في صعود الخمسينات . وكان في رحلته دائم البحث عن الطفولة والصفاء المقتولين ، دائم الحزن عليهما . وكان لحزنه درجات صوت . سنحاول أن نتتبع مساره من « مات البنفسج » الى « السيران وأولاد يعقوب » وما تلاها .

« مات البنفسج » :

يحدد في مجموعته الاولى دائرة الحياة التي يهتم بها ويعرفها . أبطاله أشخاص فقراء ، شباب ، حمال ومتشرد ومعتقل سياسي ، بائعة صغيرة وامرأة سيئة السمعة . وهؤلاء الاشخاص يحبون ، ويتألمون ، ولهم أحلامهم . يواجهون الحياة ، رغم أوضاعهم المحزنة ، مواجهة جريئة وشاعرية ، ويفيضون رقة ، منسيون بؤساء ، نموذج انساني مفضل .

www.alkottob.com

يقدمهم عبد الله عبد بكلمات تحدد أشكالهم وأجواءهم . الا أن مايميزهم أنهم يطلبون علاقة حميمة انسانية الى جانب طلبهم الخبز ، أن طلباتهم المباشرة الحياتية مرتبطة بأفق . لم ينفصلوا بعد عن أحلامهم . ألمهم كثير . لكنه يأخذ شكل الحزن والتناقض مع العالم الخارجي لاشكل الهزيمة واليأس .

يبحث (المتشرد) الذي زاول كل الاعمال ، من قطع الحجارة حتى الدفاع عن الوطن ، عن عمل . هو ، بعد أن « عرج على عشرين مطعما يسأل أصحابها عملا ، وثلاثين فندقا ، وخمسة وأربعين حانوتا للاحذية » يحس بحاجته الى انسان قربه . « لم يكن اليأس قد نال منه ، غير أنه شعر بصورة مفاجئة بحاجته الى انسان ما » .

وفي المجموعة شباب وحب ، واحساس رجل بشعر فتاة على جلده ، وعذوبة وقفة شابين عاشقين تحت المطر ، والسعادة الصافية والأسيانة .

يمتزج الحب بالانتظار والمطر والشجر . وينهزم . ينسحق طريا ، صافيا ، شابا ، وانهزامه حاد وحزين . يأخذ الشابة الرقيقة صاحب دكان فظ يطلب حالا ثمن مايعطي . لماذا ؟ ماالثمن ؟ شريطة خضراء ، وجوارب طلبتها المعلمة ، وقطعة جبن . « كيف يمكن تصور هذا ، فتاة عمرها أربعة عشر عاما . . » (الشريطة الخضراء) ماحدث فادح . ولكن لايوجد يأس . لاتوجد بعد نهاية . الابطال شباب ، والايام المقبلة لم تأت بعد .

ليست محنة الانسان في أنه يفقد فتاته ، فقط . يفقد حصانه الذي يساعده ويعيش معه الهموم . وهو مصدر رزقه . يجر محمود (العربة والرجل) العربة الملأى بالاثاث على طريق مرتفع الطابيات . وهو أمام امتحان معرفة قواه . لايستطيع أن يتراجع ولا أن يقف ولا أن يتقدم . « تاريخه كحمال بدأ

www.alkottob.com

العمل منذ الخامسة عشرة، ماضية ، حاضره ومستقبله ، مهدد في هذه اللحظة . انه وحيد مع الشمس المحرقة والالم والفشل . ولكن ، رغم ادراكه العميق قسوة حياته ، فانه سيستمر فيها على ضوء من داخله . لايوجد يأس . » وتلاحقت أنفاسه . وبات لهاثه أكثر تقطعا . كان يقترب شيئا فشيئا من الضجيج ، لكنه رغم ذلك فقد تابع طريقه ، لانه كان يدرك أن الرجل أكثر قدرة على احتمال الالم طالما هو قائم على قدميه ، وطالما هو مستمر في سيره الى الامام ».

لايجد الملاح (الملاح وسر البلورة) مكانا له في القرية ، فيخرج منها « غريبا عاريا بلا سند ، منحنيا نوعاً ما ، كأنه يتقصص أثر كنز . كانا وحيدين هو والشمس . أما هو فقد كان الاعياء واضحا عليه وان كان بعيدا عن البؤس » . .

المرأة :

ينوس عبد الله عبد بين رؤية رجعية متوارثة للمرأة ، وبين التعاطف معها ضحية اجتماعية . تجسد قصة « مات البنفسج » رؤية رجعية للمرأة ولمثل الجمال والشرف . ولذلك لايعطي جنوح الكلمات في نهاية القصة ، عمق الشعور بالحزن . ولا يثير التعاطف ، على نقيض « الشريطة الخضراء » .

في القصة لوحات صافية ، توحي بقرية ألمانية ، سقف بيوتها من القرميد ، يتصاعد الدخان من مداخنها ، أبواب حدائقها منخفضة ، والورد والنباتات تتدفق من سياجها . لكن الفتاة فيها مثل متخلف للنقاء والشرف ، بشكلها ، وحركاتها ، وضفيرتها ، ومعاملتها الرهبانية لخادمها الصغير ،

www.alkottob.com

وصلاتها كل يوم . « كان عمرها بين السادسة عشرة والسابعة عشرة ، قامتها معتدلة ونحيلة الى حد ما وبشرتها بلون اللبن تميل الى الشحوب ، حتى ليخيل للمرء لاول وهلة لرقتها وشحوبها أنها تعاني مرضا مزمنا ، عيناها عسليتان واسعتان هادئتان تظللهما أهداب طويلة » . . « وكانت لاترفع بصرها عن مقدمة حذائها الا نادرا أو لتتفادى مارا ما » .

تعطي القصة صورة منمقة ، دقيقة ، ولكنها بعيدة عن القلب ، للشابة الملائكية بعد الصلاة : « وتنهض وقد اكتسى وجهها مسحة الهية ، وشع من عينيها نور هادىء لطيف ، وتسير ذاهلة فيحييها الخادم الصغير الذي وقف عند بداية الدرج من جديد بانحناءة أخف من الاولى ، فتمسح بيدها الناعمة على وجهه الغارق في السمرة ، وعندما تستقر أصابعها عند نهاية ذقنه ترفع وجهه الى أعلى بحركة رفيقة ، وتنظر في عينيه ، ثم تتمتم ببعض عبارات المباركة . . » .

المأساة في القصة هي تحول الفتاة من راهبة ذات ضفيرة ، الى فتاة مقصوصة الشعر ، موردة الوجنتين ، تضحك مع رفيقاتها . شكل الفتاة الاول ، على كل حال ، لايبرّر . فهي شابة ، عندها بيت جميل وحديقة وعبد ، وتستطيع أن تقضي الصيف في جبل لبنان . ويبدو أنها تذكرت بعد سفرها الى لبنان ، أنها تستطيع أن تكون مرحة سعيدة . هل هذه مأساة ؟ الضحك والحب ، في الشباب ، طبيعيان أكثر من الرهبنة . لكن النظرة الشرقية التي تقرن المرأة الملاك ، المرأة الهادئة الخجول ، المطيعة ، بالمرأة الشريفة ، هي التي تعتبر مثل هذا التطور مأساة . وهي نظرة عادية شائعة ، يبررها أن المرأة لم تكن مارست ، على نطاق واسع ، كونها ندا ورفيقا في العمل ، ولم تكتسب مثل الجمال والشرف الجديدة شرعيتها فتقترن بالنشاط

www.alkottob.com

والاستقامة والجرأة . لكن هذا الموقف يتناقض مع استشفاف كاتب للمستقبل ، ومع جموح حاجته الى المرأة - الانسان - الند .

سميت المجموعة باسم القصة . وقيل انها لفتت الانظار الى كاتبها . ألأنها جسدت مثل الجمال والنقاء عند جيل ، وتأثره عندما اهتزت ؟ يصعب علينا ، نحن ، أن نتعاطف مع القيم القديمة السكونية . ولانرى انهدامها مأساة بل بداية جديدة . على كل حال ، قد يكون عبد الله عبد معبرا عن جيل يقف مع التحرر الاجتماعي لكنه يحتفظ بالتراث المعادي للمرأة فيعيش شرخا بين المفاهيم التي تبناها مختارا وبين المفاهيم التي رضعها مع الحليب . لذلك يأخذ العدوان على المرأة عنده شكل العدوان على جسدها ، باعتباره أعظم عدوان ، لارتباط الشرف والاخلاق بطريقة التصرف به .

في القطب المقابل ، تأخذ المرأة مكانا آخر عندما تكون مضطهدة ، مستباحة فقيرة ، في أسفل السلم الطبقي . يقف الكاتب وتتذاك موقف المنكر لشرعية مثل الشرف السائدة .

عائشة (العلق) شابة ترجع من العمل وبيدها صرة . والام والاخ مهتمان بالصرة ، رغم معرفتهما ما ينتظر الفتاة . من حوار المجموعة مع النفس ومع الفتاة ومع الآخر ، تبدو إدانتها ، والحاجة الى مايأتي به عملها المدان . يتركونها تضرب ولا يتدخلون . يجب أن تضرب ، دفاعا روتينيا عن الشرف ، وأن تكذب ، ثم تعود الى شغلها مع الصباح .

في قصص أنصار الالتزام من الجيل الماضي ، تقدم المومس بطلة القصة دليلا على انسانية الكاتب والتزامه بنقد المجتمع ورفضه ظلمه . وتترك الظواهر العادية ، الشريفة ، التي تحمل أكثر من غيرها الظلم . لكن المومس في الصقر (الصقر والسلحفاة) تقدم من زاوية متميزة عما سبقها . تطلب

www.alkottob.com

السلطة القانونية نصيبها من المرأة التي تلاحقها . يأتي الشرطي ليأخذ حصته من المرأة ، لاتسنح له الفرصة فيأخذ ضريبة أخرى : أساورها ، كل ماوفرته في عمرها . لاتبدل المرأة عملها بعد زيارة الشرطي . تبدل مكانها فقط . وسلوكها هذا شرعي .

يستمر النوسان في مجموعة عبد الله عبد التالية . من جهة زوجات غليظات ، مستبدات ، جاثمات على قلب الرجل ، ومن جهة ثانية امرأة خارجة على التقاليد الموروثة ، شخصية ايجابية ، شاعرية .

القصص السياسية :

تأخذ القصص السياسية مكانا هاما في « مات البنفسج » ، وتعبر عن وضوح رؤية وموقف . واذا جمعت ذات يوم قصص سورية سياسية في مجموعة ، « فأرض الرجال » و« اللعنة » ستكون منها . هنا تسخر الشاعرية ،والرمز ، والحوار ، والحديث مع النفس ، وحركة الاسلوب لتعطي الفكرة ايحاء فنيا وشمولا وتفردا .

وقد تكون « اللعنة » من القمم الفنية عند الكاتب . يحمل فيها الرمز وضوحا سياسيا نادرا ، ويوظف فيها الحكماء والغريب والموتى والنسور والحاشية توظيفا جيدا . فيها نبرة تحريضية ، هجومية . يحرض الحكماء الناس على التمرد بهدوء يعطي ثقل الحقيقة : « الهم مجلبة للضعف ، ولا يخلف الحزن الا يأسا » ، « لكي يوضع حد للموت ينبغي أن يقابل بالموت ، فليس مايقهر الموت كالاقدام عليه . . »

يبدأ الناس بالمقاومة السلبية : بالصيام . ولا يرضى الحكام عنها الا على أنها « أضعف أشكال المقاومة » . تذكر القصة ، بشكل جديد ، بحقيقة

www.alkottob.com

هامة قديمة هي أنه مهما كبر الظلم ، ومهما كان الشعب أعزل من السلاح ، والملك مدججا بالمرتزقة والسلاح ، فالناس يستطيعون الانتصار عليه . يجب ، فقط ، أن يمتلكوا « ذواتهم » ، وأن يعترضوا بجرأة ، وأن يعافوا مايغريهم به الملك . لاتجدي محاولات الحاشية ثني الشعب عن اضرابه . وتظهر المقاومة كذب لافتات السعادة التي علقتها بطانة الملك على المدينة .

لم يتورع الملك عن مقاتلة شعبه . لكنه لاينتصر . يجب أن ينهزم الملوك ، الظاهرة التي لاتلائم العصر . « ان الملوك ماعادوا يصلحون لهذا الزمن » . بانهزامهم يعود الانسجام الى الكون . لكأننا نستشف عالم المستقبل الذي تتلاحم فيه العدالة والسعادة . « وحينما زار الناس قبور أحبائهم في اليوم التالي ، لاحظوا أن الاشواك السوداء قد اختفت تماما ، بينما تفتحت الازاهير حول القبور ، فأدركوا عندئذ ، وعندئذ فقط ، أن الآلهة رضيت عنهم » .

يلفت الانتباه دور الغريب الذي يبشر بحياة أخرى موجودة وراء النهر . رجل يدعو للتمرد ، وينتهي نهاية المبشرين والثوريين في البلاد المظلمة . لاتتجاوز الحياة الجميلة التي وصفها الغريب ، الاكتفاء المبادي ، وتزاور الناس ، ولبسهم الثياب النظيفة . وذلك معبر . فهو التركيز المألوف على طلبات الحد الادنى للانسان ، وعدم الارتفاع الى لب الحق الاساسي بالحرية ، في كل نظام قادم ، وتجميد الديمقراطية والتقدم بالتألية والتمجيد ، والوقوف دون الارتباط الدائم بطلبات الانسان المتطورة النامية .

لاتموت كلمات الغريب بموته ، رمزا لاستمرار الاحتجاج من زمن الى زمن يليه ، فالريح تنشرها « فيتنفسها الناس مع الهواء والشمس » . الشاعرية في جانب التمرد ، مع العدل ، وهي تنشر شفافية أسطورية « وجاءهم صوت

www.alkottob.com

أحبائهم من بعيد طاويا السهول وذرى الجبال والوديان والانهار . صوت عميق هادر كأنه ينبثق من قلب الزمن :

-ان ملككم ظالم :

. . . وحملت اليهم الريح أنينا موصولا متسق النغمات كجدول دائم الجريان ، ينبعث من الاجساد المدفونة تحت أحجار القصور من الاقبية المظلمة ، من الخرائب ، من الأكواخ ، من الافواه الفاغرة ، والظهور المنحنية تحت لهب الشمس . . »

الظلم في « اللعنة » عام ، شامل ، يخيم على شعب . والشعب ، كلا ، يخضع أو يقاوم . والكلام هو عن مجموعة . أما في « أرض الرجال » ففي المركز رجل معين . هذه القصة هي من القصص العربية القليلة التي تحكي عن إذلال الانسان بالتعذيب والاعتقال ، مع أن ذلك يمارس منذ سنوات طويلة . لكن الجميل ، والانساني ، والجديد فيها ، أنها لاتتبجح بالبطولة . لاتقبلها . كأنها تذكر بكلمات بريخت عنها :

« . . -يالتعاسة البلد الذي لا أبطال فيه . . .

. . -لا . يالتعاسة البلد الذي يحتاج أبطالا »

يقف الرجل أمام الحراس ، بقلقه وصموده ، وتراجعه وهجومه . وهذه العواطف والبطولة ليست ضرورية للطرفين ، تهدر قوى وعواطف يمكن أن تأخذ دربا آخر مفيدا ، في عالم لم يزرع بعد كله ، ولم يصبح بعد لطيفا وسعيدا .

يتمنى الرجل أن يبعد المسافة بينه وبين جلاديه « لدرجة أقنع بها نفسي بأن ماألقاه من صنع الآله . كان ذلك يخفف عني بعض الشيء » وهو يقاوم لانه لايملك غير حقه في اختيار اللعبة . . لانه يجب أن يوجد الفارس .

www.alkottob.com

« حسنا . حسنا . سبع . . ثماني تسع . اذا خلت الدنيا من الفرسان ، فقدتَ الصحراء أعظم أسرارها . . هل يعني ذلك انحسار الصحراء وطغيان البحر . . لامعنى للصحراء دون فارس ملفع وجود كريم . »

هذا شعور نبيل بالمسؤولة عن شرف الانسان وجدارته باسمه ومكانه . وهو أيضا المسؤولية عن النقاء والصفاء في الطبيعة .

ولكن ماوضع الانسان ، الفارس ، النبيل ، هناك ، « أنا قابع أنتظر مثل كلب طعن في السن . ان أقسى مايعانيه الانسان أن يلقى الضربات كحصة محتومة ، وحيث لايستطيع الوقوف كالرجال . وحيث يفقد العطاء معناه » .

ليس الانسان ، العظيم ، ندا أمام ند . بل جلد أمام سوط . ان الحزن عميق على الانسان ، أي انسان ، يقف هذه الوقفة . « اخفقي ياطيور الاسى . . وازحفي ياجيوش الحزن . هي ذي أنفاس التتار قد هبت ريحها اللافحة ، ونشرت ألويتها السوداء . . »

بطولة هذا الانسان دنيوية ، منسوجة مع أحلام عادية . ومزج الجلد ، أول طريقة لاهانة الانسان ، والبطولة ، بالاحلام الصغيرة الدافئة ، يعطي القصة حياة وقوة . « لقد بدأت يوما بناء نصف سقف من القرميد الوردي . وأريد الآن أن أكمل النصف الآخر . وما أخال الاحلام تعيب الرجال . »

الجدة والقوة في القصة ، اعطاء الشرعية لمزيج الامور الصغرى والكبرى ، دون تمييز : شرعية الحلم الصغير ، شرعية الضرخة الضائعة لانسان متألم « ياعالم ياهوه » ، شرعية عدم اعتراف الرجل لانه يملك حق الآخرين في الكلام . الرجولة ، والفروسية ، والخوف ، والتردد ، طبيعية كلها ، على مستوى واحد في الانسان .

www.alkottob.com

في قصص أخرى ، لاتبدو أهمية « طبقة الصوت » التي امتاز بها عبد الله عبد . أما هنا فتأخذ أهمية خاصة ، لانها بسيطة ، هادئة ، صادقة ، في موصوعات جرت العادة على تقديمها بأصوات عالية ، وبفصل الانسانية عنها ، وتحويل ابطالها الى تماثيل حجرية ضخمة ، دون علاقة قربى بالانسان الذي تتوجه اليه . وهذا الصوت ، ومزيج الحلم والحوار ونداء العالم ، يأخذ وحدة فنية منسجمة مثل باقة مرتبة .

نبشت قصة يوسف ادريس « العسكري الاسود » ، علميا ، الاصول الفقيرة الجاهلة لمنفذي الفاشية . ولحقت العسكري المشهور من عنفوانه الى تهدمه . تحطم فيها الجلد والسوط معا ، الضارب والمضروب لكن « أرض الرجال » تتميز برصدها حركة قلب الضحية وتموجاته .

تغيب الشاعرية التي نحسها في « اللعنة » و « أرض الرجال » من قصة « ديكنا » . لكن القصة تحمل ، مثلها ، قيمة الايحاء الادبية ، في ارتباط مايعبر عنه مباشرة مع قضية اخرى في زمن آخر . « ان ديكة الاستعراضات غير ديكة القتال » ولذلك ينهزم الديك الجميل ، المدلل . « لكن الغريب بعد ذلك ، أنه عندما أعيد الى القن بكل هيئته المزرية راح يتبختر أمام الدجاجات والاغرب من ذلك أن هذه الدجاجات تراجعت كعادتها الى الوراء عندما بدأ يتناول وجباته . »

مابعد « مات البنفسج » :

بين « مات البنفسج » المنشورة سنة ١٩٦٩ ، التي تضم انتاجه في الخمسينات وبين « السيران وأولاد يعقوب » المنشورة سنة ١٩٧٢ ، خط نازل . هل هو الخط الهابط بين السنوات الخمسين - الستين وبين السبعين ؟

www.alkottob.com

هوت الرموز ، واضطربت الجملة ، وساء الاسلوب . لايزال الابطال فقراء من الطبقة الدنيا ، لكنهم صاروا قاتمين ، كابين . وأصبحت النساء زوجات سخيفات ، ثقيلات . لانجد فتيات . اختفى الحب والشباب ، كأن الحق فيهما انتهى في زمن مبكر ، أوكأنهما ورد سرق من صاحبه ، أوكأن القسوة غمرت الحياة .

« مات البنفسج » ملأى بالاحزان . لكن النهايات فيها مفتوحة . لاشيء ، عمليا ، للناس غير الامل وأخذ القوة منه . الحزن قوي ، لكنه حزن دون باب مغلق . لايوجد يأس حتى في اللحظات المظلمة . كأنما يعيش حلم ما ، باستمرار ، ويتلامح أفق .

في « السيران وأولاد يعقوب » صغرت الاحلام وانفصلت عن أصحابها . وانخفض سقفها . نزل الانسان من أفقه الى الحلم بتفاحة ولحم ورغيف . من الحالة التي تكاد تعطي يقينا بعظمة الانسان وقدرته ومستقبله ، الى الانكفاء دون المستقبل الذي اغتيل . وكأن هناك ايحاء ضمنيا بأن أية حياة مختلفة عن حياة اليوم لن تهلّ على أفق الجيل الذي يعيش .

يتجاوز عبدالله عبد جيله وكثيرا من زملائه وهو يعطي نموذجا متمردا في « وحدة امرأة » . لكنه يهوي عندما يعيدنا الى الاشباح النسائية للزوجات ، التي ألفناها عند الكتاب .

أما المتمرد فلم يبق منه غير انتفاضة في « المنام » . لاتمشي الجماهير ، التي أضربت عن الملك في « اللعنة » لتعيد النظافة والكرامة الى الكون ، وراء الرجل الغاضب . لاتتجاوب مع الثورة . . حتى في المنام .

أشخاص المجموعة الثانية ومابعدها ، موظفون شرفاء ، أرباب أسرة مثاليون ، آباء لكثير من الاولاد ، رجال مخلصون لزوجاتهم رغم أن علاقتهم

www.alkottob.com

بهن بعيدة عن المصارحة وعلى كثير من الحذر . وهم يكرهون حياتهم في الوظيفة ، ولاتروي لهم العائلة ظمأ روحيا ، ولاتشعرهم بامتلاء . لكنهم يزاولون الاولى والثانية مخلصين ، دون تذمر ، ودون ثورة . تزيد كثرة الاولاد مأساتهم وعوزهم ، لكنهم يقبلونها كأنها قدر . « منذ خمسة شهور وضعت زوجته ولدها الخامس . وقتها قال : هذا يكفي . لا انجاب بعد اليوم . صارت أعباء الحياة فوق طاقتي . » وقتها ، يعني بعد الولد الخامس .

لم يعرف عن الموظف صابر (موجز عن حياة موظف اسمه صابر) « أنه تخلف يوما عن سداد دين . يسير في المدينة دوما فوق الرصيف الايمن للشارع ، محاذيا الجدار حتى يكاد يلامسه وكأنه يخشى أن يعوق الناس في سيرهم . » ويحس درويش (الدرويش) بالخزي لانه يفكر باستبدال علبة حليب لطفلة بدواء ظهره ، ويلوم نفسه : « ماالفرق يادرويش بينك وبين الآخرين . هاأنت قد ساويتهم . » ولو طرد الفكرة وخرج من الصيدلية قاله « سيعود للوردة نقاؤ ها وللشمس اشراقها وللديك زهوه . . . » بعد أن يستبدل دواءه ، يسبح في عرقه خزيا . « لملم درويش أطرافه ورأسه وانحسر داخل ثيابه . . . »

يشعر الموظف بالمهانة والخجل أمام رئيسه كلما حمل اليه البريد (الآباء يأكلون الحصرم) . ويخلع العامل الموظف حذاءه وهو ينظف سطح مديره كيلا يؤرقه ، ثم يرفع سرواله لانه يلامس الارض فيحدث ضجة ، ثم يترك المكنسة وينفخ الاوساخ نفخا فيذكرنا بالموظف الذي كان تشيخوف يكتب عنه في شبابه الباكر .

وكما يعيش في الوظيفة « باستقامة المسطرة » ، فانه يألف حياة البيت ، ويستقبل أولاده تباعا : « وجاء أول أولاده الثمانية فازداد ارتباطا ببيته :

www.alkottob.com

فطـور . عمـل . غداء . قيلولة . قهوة وتدخين نارجيلة مع زوجته . عمل في حديقة البيت . عشاء . سمر مع زوجته ونارجيلة . نوم . فطور . »

يهتم هذا النمـط بالاستقـامـة والشـرف . وهذه القيم تكبله ، وتسهل سحقـه . انـه مثل حارس الحقل الخشبي ، لايستطيع رد الحزن ولو بالامل . ويتعرض لهجمات الشراسة التي تمزق سترته ، وتنهش قلبه .

وهـو غارق في الفقـر . لايتجـاوز تفكـيره أمـوره المعـاشيـة وطلبـاتـه الضرورية . فقر ساحق لايسمح بالامل ، « أحمد يريد تفاحا . يوسف يلزمه دفتر . فاطمة اهترأت صدريتها . . الشتاء على الابواب وبطانياتنا تلفت ، يلزمنا أخرى جديدة ، الحصير صارت نتفا ، الاولاد يلزمهم أحذية شتوية . . »

كيف يستطيع درويش أن يستبدل علبة حليب بدوائه ؟ كيف يجد سعيد أفنـدي ثغـرة في المصـروف ليـوفـر نصف ليرة ثمن القعدة في المقهى ؟ نجـد تفـاصيل الحاجات ، وتفاصيل الحسابات ، واستغراقاً فيها لايسمح بتجاوزها الى التحليل والعواطف والطموح .

النوافذ مسدودة . والفقر حائط دون فهم معنى البؤس ، والحياة نفسها أمـور يوميـة معـاشيـة . لانجـد هنا حتى الامل المصطنع في نهايات القصص الملتـزمـة في سنـوات معينـة ، الـذي يؤكـد ان الحياة الجديدة آتية بلا شك . الواقع أقسى من ذلك . وليس تجنب الفهم المبسط للالتزام هو مايدان ، لانه يجعـل الاولـويـة للشعـار لا للانسـان بواقعـه وعواطفه ، ويتجاهل فهم جوهر التقـدم . لكن مايـدان هو تجاهـل أن الطمـوح ، والتمـرد ، وتجـاوز الظروف المدمرة ، يقوي الشخصية الادبية .

www.alkottob.com

حجم الاحلام :

الى أين تصل أحلام هذه الشخصيات ؟ لاتذهب أحلام العامل أبعد من التثبيت في وظيفته (الامل) . ويقوم بما يطلبه رئيسه من خدمات في منزله « ووجهه يطفح بالبشر والسعادة ، وعيناه تتألقان بالامل . » ويتركز حلم سعيد (الآباء يأكلون الحصرم) في جلسة في مقهى يضفي عليه خياله صورة الجنة ويجعله رمزا لحقه في الحرية ، ولشعوره بأنه رجل مثل الرجال الآخرين ، ولحقه في حياة خاصة به . « وكان زبن المقهى يجلسون متفرقين الى طاولات نظيفة . كانوا قلة ولعل كلا منهم اختار موضعه بعناية حتى خيل اليه أن كل واحد من هؤلاء الرجال قد استكرى هذا المكان وربط اليه منذ زمن طويل . وكان يبدو من هيئاتهم أنهم رجال أعمال مختلفة راحوا يدخنون النارجيلة ويحتسون القهوة أو الشاي باطمئنان شاردين مع أحلامهم قبل انطلاقهم الى أعمالهم ، وعلى طاولة كل منهم مزهرية مزدانة بالزهور » .

قد يكون المقهى رمزا لصلته بحياته القديمة ، لرغبته الدفينة في الخروج من العائلة التي لم يعد فيها شخصية مستقلة . هرب من دائرة الفطور والغداء والاهتمام بالحديقة ، وحق شخصي في تدليل الانسان نفسه . ومع ذلك فان هذا الحلم يظل ضئيلا ، لايخرج عن حياة صغيرة ومحدودة . لايأخذ قيمته من الارتباط بقضية أو صراع هام ، كما أخذ الحلم يسقف القرميد في « أرض الرجال » قيمته .

ومع هذا ، لايتحقق الحلم . لايتحقق حلم العامل بالتثبيت ، ولا حلم الموظف بالمقهى . بسبب الظروف ، أو الشخص نفسه . بعد أن وفر سعيد ثمن حلمه ، تذكر أن ابنه اشتهى الكرز . نتيجة مفاجئة ، لاننا ألفنا

www.alkottob.com

حلمه بالمقهى ولم نر علاقة مسبقة انسانية بالاولاد تمهد للاختيار . تأكيد عبوديته ؟ . بل ضعف فني ، درامية مصطنعة . ولكن الهام أن النهاية تؤكد انهيار حلم صغير عند موظف صغير .

هناك حلم أعلى درجة وأكثر انسانية ، هو حلم سلوم . هنا تعود شاعرية عبد الله عبد الى الحياة . سلوم متشرد ، في العقد الخامس ، بينه وبين الناس خصام المجانين والمتشردين وأصحاب العاهات . يضربه الفتيان والاطفال . وتغازله الفتيات ساخرات منه . وبينه وبين الطبيعة قربى حميمة ، ولطف . « يكفيه أن يقطف نبتة جرجير أو هندباء ويمضغها بتؤدة كي يعرف أن السنونو عائد ، وأن القبرات والسمن ستتهالك في الحقول منشورة الاجنحة من رحلتها الطويلة قبل أن تبني أعشاشها ، وأن جيوب السماء قد أمسكت عن المطر . ويحس أن الزهور ستتفتح وشيكا . . »

عندما يرى سلوم صاحب الزريبة التي كان يحرسها ويبيت فيها ، هاربا من الحية تنفتح أمامه ، لاول مرة ، فرصة أن يبرهن على انسانيته ، كأنه ينبش حلما قديما دفينا . وأن يتخطى المسافة التي تبعده عن الناس ، ويأخذ شرعيته الانسانية . لذلك يأخذ صراعه مع الافعى شكلا مجنونا من التحدي والرقص . لايقتلها بحجر أو عصا ، كما يريد المتفرجون . بل يحرك الحد الاعلى من اهتمام الناس ومن دهشتهم وتوترهم . « ثم راح يجهز على الجزء الحي بقدميه . وكانت قدماه المتناوبتان في ارتفاعهما وهبوطهما كأنهما تصران على تأكيد شيء فاتهما تأكيده من زمن بعيد . ثم تغير وضع القدمين شيئا فشيئا فصار أكثر طراوة وايقاعا كأنه يلبي نداء أغنية بدأت تتصاعد في داخله . وفكر الواقفون « سلوم جن . . سلوم جن . وصرخوا : احذر ياسلوم ستقتلك ابتعد عنها دمها يغلي فلا تقربها . . »

www.alkottob.com

أثار سلوم التعاطف والاهتمام . وبدا وكأنه أثبت انسانيته أمام نفسه . وأمام الناس . وكأنه انتصر أخيرا فاجتاز البعد الذي بينه وبينهم . وقد استعاد مكان مبيته في الزريبه . لكن الناس يتفرقون ، دون أن يفهموا معنى مواجهة سلوم للافعى ، ويزيون سبب القدرة التي تفجرت فيه كتب السحر والصلة بالجان . . أو لان الله « يضع سره في أحقر خلقه » .

لم يستطع سلوم اذن أن يحطم الفرق بينه وبين الآخرين . لم يصبح مثل غيره . لايغير الوضع قدح الشاي الذي قدمه له صاحب الزريبة .

النموذج الذي يحقق بعض مايريده ، هوزهرة . تقف في الجانب المقابل لاشباح الزوجات ، نموذجا جريئا متمردا ، مصيره مؤلم . امرأة مدللة ، تتزوج رجلا من غير طائفتها ، لكنها تتركه عندما يضربها ويفرض عليها الحجاب ، وتربي أولادها من عملها . لاتنافق لتنال المأوى عند زوجات أبنائها . وهاهي « في الخمسين ، قعيدة الفراش ، زجاج نافذتها مكسور ، وأرض غرفتها عارية في أواسط كانون . وفراشها مبلل كطفل في سنيه الاولى . » (وحدة امراة) وحيدة ، تنتظر أن يمر انسان ليرفع رجلها من طست الماء ويشعل ها الضوء . ومع دلك فهي لاتندم على الطريق التي مشتها . « . . لن أسف على شيء . لاني اراني قد فزت بالنصيب الاوفى . لقد فعلت مايحلولي . ولعل هذا مايعطي الحياة قيمتها . . وأنتن ياجداتي ارفصن حلقات حلقات . . أما أنا فقد اثرت الرقص وحدي . كلكن تافهات لان واحدة منكن لم تجرب الرقص وحدها . . » امرأة ، متمردة ، وسط موظفين خنوعين . انها لمأثرة .

www.alkottob.com

الافق :

لايحمل تغير الحياة ، ومرور السنوات ، الامل . يذكر الاشخاص أن الماضي كان أفضل . « زمان ، كانت الدراهم قليلة في أيدي الناس . لكن المرء كان يجد دائما شيئا منها في جيبه . كنت تشتري حضن البرتقال بفرنك . والآن الدراهم أكثر ، ومثلك عاجز عن شراء كيلو برتقال . » (الآباء يأكلون الحصرم) « منذ بضع سنين خلت كان راتب صابر يكفيه لعدد من أيام الشهر . واليوم قد زاد راتبه عما كان عليه من قبل . تناقص مع ذلك عدد الايام التي يجد فيها المال في جيبه . » (موجز عن حياة موظف اسمه صابر) « فنصحته أمه أن يطعم زوجته اللوز والفستق والبندق . وقالت له في امنا عندما كان يجف حليب امرأة كانت تأكل المكسرات . كانت المكسرات أرخص من التراب . » (الدرويش)

ذهب العالم القديم . ولكن العالم الجديد لايأتي الناس بالسعادة . وهو ينفتح أمام أحمد القاضي (غربة) عالما دون بهجة ، مقاهيه ملونة ، بيوته مثل العلب ، يصعب التمييز بينها . أبيدت بساتين التين والرمان والمشمش والجميز . بقي من العالم القديم أخدود فيه نبتة بقلة وشجرة تين . هل هو عالم جديد بالامل اذا كان يدمر ماضيه بمثل هذه الشراسة ، ولا يجد فيه رجل القربى الا بينه وبين شجرة تين ؟ « كلانا بقايا مدينة لم يعد لها من أثر . . لقد هدموا القناطر في حي الصباغين وسوق البيلسان وشيدوا جدرانا لايجري بين جنباتها هواء طري . أنت وأنا وشقفة أغنية قديمة وحي مهدد بالهدم كل مابقي من مدينة . . »

ليست هذه الغربة غربة جيل عن تطور مدينة ، غربة جيل عن جيل . بل الغربة عن مدينة تتجدد على هذا الشكل ، وتقص بساتينها ، ويكوم

www.alkottob.com

الناس فيها دون علاقات انسانية . كان يمكن أن تتضح أكثر هجمة الرأسمالية الجديدة التي تطحن المدن القديمة ، أويتضح الدفاع عن الطبيعة والاشجار المهزومة أمام أوساخ المصانع وهجمة المتعهدين . على كل حال ، تقدم القصة أفق تطور المدينة . أفق ؟ طاقة مسدودة تؤكد انسحاق الانسان .

ماسبب هذه القتامة والانكسار في حياة أشخاص عبد اللّه عبد بعد « مات البنفسج » ؟ الوضع المحزن ، تعمق الفقر ، والابواب التي انسدت أمام طبقة عندما انفتحت أمام اخرى ؟ ليس هذا فقط . فالامل أقل ، والحزن أكثر ، في حياة العرب في اسرائيل . ومع ذلك لم نجد الانكسار في أدبهم بل التمرد والقوة والتحدي . أم ترى السبب هو اهتزاز المثل الماضية ، وقلة الوضوح ، وتبدل المواقع ؟

على كل حال ، هناك عتبة لايستطيع الانسان المسحوق أن يتجاوزها . لايمكن البحث عن تجاوز العتبة بين المدير وبين الموظف الصغير ، بين الغني وبين الفقير . لذلك يقف الشخص تلك الوقفة الخاسرة الحزينة ، وحيدا ، فاقد الامل . لايكون التجاوز الا بالثورة على الوضع البائس ، بالاعتراض ، بالرفض . عند ذاك يتعرف الانسان إلى قدرته الحقيقية ، ولا يعود العوز تأكيدا لصغاره وانسحاقه ، وتتسع آفاق حياته ، ويرى في المتعة والجمال حقه وثروته المسروقة . ذلك الوعي هو بداية الشعور بالكرامة والقوة . عند كثير من الفقراء جانب قوي هو الاعتداد بالنفس ، والسخرية المبطنة من الاغنياء . لانرى هذا في قصص عبد اللّه عبد الاخيرة . نرى الجانب الآخر : الانسحاق ، والاستسلام ، « الحمد لله . مستورة . الله مع الصابرين . »

لاتحدث ثورة الموظف البسيط على وضعه ، ولا يحدث انفكاكه من

www.alkottob.com

عمله ، الافي المنام (النوم) . يطالب عواد بالقاء القبض « على اللصوص ومصاصي دم الشعب الحقيقيين » . ويبحث عن الشعب ليحرضه على تخليص الرغيف من تسلط أصحاب الافران . ويهتم بالسياسة . ويغضب . ويهرب من الاعتقال . . في المنام . أما في الحقيقة فانه يؤكد لنفسه أنه سيستيقظ في الخامسة صباحا « ليكون بكامل ثيابه على باب الفرن . حيث أمل أن يكون الزحام أقل مايمكن عليه في هذا الوقت . » هل دجن الانسان الى هذا الحد ؟ هل هذه هي صورة الواقع الحزين ودروب الثورة المغلقة ؟

تشعر قصص عبد الله عبد المنشورة بعد « مات البنفسج » ، بثقل في الصدر . تسلط الضوء على انشغال الانسان بأبسط حاجاته الاساسية التي تبدأ الحياة ، عمليا ، بعدها أو بعد امتزاجها بقضية . ويستبدل أشخاصها أعرض الآمال بأضغرها وأقلها كلفة . لايمكن اختراع واقع آخر ، ولا يمكن اختراع التفاؤل والفرح اذا لم يوجد في القلب . لكن قوة الانسان ليست في ضحكته وثبات مشيته على الأرض ، فقط . ليست دمغة التفاؤل مطلوبة ، ولا مقبولة ، وليست غير فهم مبسط للارتباط بالتطور وانتماء ساذج للمستقبل . قوة الانسان في تمرده ، في يقظته ، وفي خيط الضوء الذي يصل حياته الصغيرة بالعالم الواسع ، ويصل حبه وحزنه بأمواج ذلك العالم . كلما ارتفعت الاسوار حول الحياة الصغيرة كانت قاتمة ومحزنة ودون مخرج مضيء . تأتي الجدارة الانسانية من الاتصال بين الانسان الصغير وبين الكون . يعطي هذا الاتصال الحياة جمالا ورحابة . كما يعطيها التمرد ذلك . وقد خلق كتاب تمردا مدمرا ، عندما لايكون المجال مجال الانتصار . وتمردا عاقلا ، ناضجا . وكلاهما ، على درجات متفاوتة ، يكسبان الشخص قوة ، ولوكان على حافة

www.alkottob.com

النار والدمار . لايأخذ الدمار اذ ذاك شكل الانسحاق الحزين ، ففيه أنفة وكبرياء ورفض واقع مظلم .

أما الانسحاق الى حد الاستسلام ، والانطواء في حياة صغيرة ، فهو مدان . لاتسمح الكرامة بهذا المقدار من الذل !

في « مات البنفسج » لمحنا الاحلام بالقرميد والحب ، والجمال . هل رأى الكاتب الاحلام تتمزق ، والآمال تتبعثر وتهان ؟ لابد ان هناك فجيعة ما جعلت نبرة الشباب تختفي من كلمات كاتب ، فانحنت القامة حتى توقفت عند أبسط حاجات الانسان وبقيت عندها .

اغتنت الحياة بآفاق فكرية وسياسية . والقصة تطلب تعبيرا أكثر عمقا ومعاصرة وحركة ، عن سنوات الأمل والهزيمة والتوتر . لاتمكن الكتابة الآن بمستوى مفاهيم السنوات الخمسين عن القصة . لايمكن اهمال بحث الانسان عن الشاعرية والصفاء والقربى ، وبحثه عن أكثر الاشكال حدة ومعاصرة ، واهتمامه بتراث الشعوب ، وتأثير التقدم التكنيكي في المسرح والسينما والتصوير والصحافة ، ودخول المناقشات السياسية والفكرية الادب والمسرح . ويطلب هذا الوضع أشكالا فنية متنوعة ، من الموضوع الحديث في شكل اسطورة الى الرمز ، الى المناقشة الواضحة ، الى الشكل المعاصر - الشطحة . كل أسلوب ممكن اذا تفاعل مع المكتسبات الحضارية وامتزج بروح المعاصرة ، واعتمد على العمل الدائب لتطويع المادة . لذلك لايمكن ادانة القصة لانها « بضمير المتكلم » ، أو لانها تعتمد « السرد » ، أو لانها « دون مقدمة وعقدة ونتيجة » .

كل شخصية وكل طريقة شرعية في الادب . كل شيء يمكن أن يكتب بروح متفتحة معاصرة ، ويضع بقعة على القضية التي تقلق الانسان في أيام

www.alkottob.com

معينة ، ويمزج القضايا الكبرى ، الورد والخبز والحرية ، مع مداد القلم والكلمات والاشكال .

وجد عبد الله عبد الاسلوب الذي يرتاح اليه . وهذا حقه . وقد وصل الى ذرى فنية في بعض قصصه ، وأفاد من الرمز ومن الشاعرية ، ومن تنوع أصوات الحوار . وحقق أحيانا تماسكا فنيا ، وتركيزا ، وتطويعا للمادة . لكنه ، رغم هذا الايجابي ، لم يرم نفسه في أمواج العصر ، في الحركة المستمرة للبحث عن طريقة التعبير الملائمة ، وصراع الاشكال . ولم يعمل كلماته جيدا . كأنه لايدرسها . يقتل الشعور فقدان التوازن في جملة فيقع القارىء كمن يسقط في الحفر . والعمل في مادة الكلمات هام في اللغة العربية أكثر من غيرها ، لانها تحمل تراث الخطابة ، والمغالاة ، والتعميم . وهذا كله ضد العصر .

القضية التي قد يقاس مدى تحقيق الادب شيئا بالنسبة اليها أو تقصيره عن ذلك ، هي النهوض بالانسان ، من الخبز الى آفاقه الكبرى وطلباته التي لاحدّ لها ، وكشف امكانياته العملاقة التي لم يكتشفها بعد هو نفسه ، ورفع ذوقه حتى الشفافية والرفاهية .

سعيد من حقق ذلك . سعيد أيضا من كتب حصته التي استطاعها .

www.alkottob.com

غادة السمان

في كوابيس بيروت

مهنة الكتابة صعبة على المرأة . لانها تستلزم تكريس الوقت والهوى . مثل غرام رجل عاصف ، مثل انغماس في قضية . هذا ، اذا رأينا الكتابة رؤية علمية ، عملا في مادة ، لاتسجيل انطباعات وأحاديث شعور . نقد كتابة النساء ، أيضا ، صعب . فكتاباتهن يطحنها الاعجاب بأشكال صاحباتهن ، أو تشجيعهن لانهن تجاوزن سجنهن الموروث ، أو الغيرة من جرأتهن على أخذ مكان ليس مكانهن .

احترام الكاتبة الحقيقي هو في معاملتها ندا ، دون ان يمس النقد الادبي شعرها المسبل ، وبشرتها الناعمة ، وسحر عينيها . يجب أن يكون ميزان الكلمة الفنية عادلا . بهذا فقط ، نثبت أننا نحبهن زميلات في مهنة ، ورفيقات في حياة . وربما ، في جانب من قضية .

تكتب غادة السمان أفضل مما يكتب كثير من الرجال . هذا الحكم المتميز للمرأة ، مفيد في نضال نسائي . في النقد الأدبي ، نزيح صور الكاتبة الجميلة وسخاء الاعجاب بها ، ونرى ماذا تكتب في مجموعتها الاخيرة « كوابيس بيروت » ، وكيف .

قبل كل شيء ، لانرى مجموعة الكوابيس رواية . قد يكون مبررتلك التسمية تزمتنا العميق ، مرضنا في البحث عن الشرعية ، ولوكانت عناوين

www.alkottob.com

أشكال أدبية ندعي أننا نثور عليها ، أو شرعية مجتمع لانعترف بعدالته . لاينفي الحرارة والحيوية من علاقة حب انها ليست شرعية ، ولايضفي عليها ذلك شرعيتها . قد يأخذ عمل أدبي شكل مذكرات وانطباعات . ولاضرورة لاسدال ثوب فني متعارف عليه ، على المادة الحية ، في ظروف قلقة . فهي شاهد . ولحرارتها قيمة كبيرة ، وخاصة اذا كان ا لالتقاط بمثل حساسية 'لكاتبة وقوة رصدها . لا حاجة للهوية كي يحمل عمل جدارته .

ثانيا ، يجب الا نطلب من الكتاب أن يكون تعبيرا شاملا عن المأساة اللبنانية ، ولا التقويم الصحيح للاحداث وتعيين مسارها . وهو ، رغم مايحمل من صدق ونظرة واعية ايجابية ، لايعبر عن ثقل التطلعات وثقل الهزيمة .

الكوابيس يوميات ، تشبه مارواه اللبنانيون الذين حوصروا في بيوتهم أيام القتال . انطباعات كاتبة تتخذ موقفا عادلا وانسانيا في تأملاتها عن الحرب ، وتلتزم ، الالتزام الذي يسمح به موقعها ، بالعدالة والدفاع عن الضحايا . وهي ، من خلال ذكرياتها ، تلمح الى وضع لبنان المرضيّ ، قبل الاحداث ، والى نوع الاطراف المتخاصمة .

كان التوازن الماضي هشا . وكان المجتمع اللبناني طائفيا ، طبقيا . ولكن هل كان لابد من حدوث ما حدث ، في وقته المناسب ، ولم يكن هناك دافع آخر للخسارة والتصفية ؟ يوحي الكتاب بذلك من خلال صور لبنان المتأزم . نظن ، ان الوقت لم يكن الوقت المناسب للانتصار .

تقول بيروت : « لم أكن قط جميلة . لاجمال بلا عدالة . كنت قناعا جميلا وها أنا أخلع قناعي ، مجوهراتي وفرائي وقفازاتي وأغسل وجهي . . ولو

www.alkottob.com

بالدم . . لقد رفضت دوري كراقصة اولى في كباريه الشرق الاوسط . » (ص ٢٠٦) .

لكن بيروت أيضا ، هي الكلمة الممكنة في الشرق ، والترجمات ، والاقلام الجديدة ، والمعارض .

من صور لبنان الممهدة للانفجار ، صورة رجل من أصحاب السيارات الرسمية يبدع في اظهار ثرائه فيلصق على سيارته لوحة من فضة عليها الارقام من ذهب . وسائح حالم بلبنان يحمله شاب طائر فيريه الحقيقة التي تخفيها فرق الرقص الفولكلوري والدعايات السياحية .

« بدلا من بعلبك طار به اولا الى مكان اسماه الكرنتينا . اذهله أن يعيش البشر في زرائب تنكية . وأن يبكي الاطفال في الوحل جوعا . . وفقرا . . ولكن لاحظ أن عيونهم حمراء ، أو ان ضياء أحمر يشع منها في كثير من التصميم والغضب . . وبلمح البصر وجد السائح نفسه في مكان يقطر فقرا وقال له الشاب : نحن الآن في تل الزعتر . . » (ص ١٩٧) .

« طار به الى الجنوب وتعب السائح الوحيد في لبنان فقرر دخول أحد البيوت ليشرب ويغسل يديه . قالت له المرأة الحامل التي فتحت الباب : ليست لدينا مياه جارية . انتظر . سأملأ قليلا من الماء . ومضت نحو مستنقع وملأت له كأسا وذعر وهو يرى الديدان تغلي فيها . . » (ص ١٩٨) .

لمحة عن مشكلة الجنوب الذي يطعم لبنان ، ويختنق بأزماته ، ولا يأخذ حق الحماية الوطنية . الى جانب الفقر ، يرى السائح في أقصى الجنوب « مخافر اسرائيلية متقدمة داخل الاراضي اللبنانية . . » (ص ١٩٩) :

يشبع السائح من الاحزان . فيطلب من الطائر أن يأخذه الى أقصى الشمال . وهناك « اشرفوا من بعيد على جيش يتدرب ، سأل السائح : ماهذا

www.alkottob.com

الجيش ؟ رد الدليل : جيش التحرير الزغرتاوي . . سأل السائح : ولكن لماذا جيش التحرير في أقصى الشمال بينما العدو في أقصى الجنوب. . رد الدليل انها من مظاهر المعجزة اللبنانية . . »

يضاف الى هذه الصور ، مخزن الحيوانات الاليفة ، في شكله الاول ، دليلا على البذخ ، وان كانت توظفه ، فيما بعد ، توظيفا فنيا لتعبر عن التدجين ، وضياع العدو الاصلي ، والانتقام .

عندما تتفرج الكاتبة - البطلة على البوم الاغنياء ، بمجوهراتهم وأثاثهم ، تؤكد مرة اخرى الاساس الاقتصادي الممهد للأزمة : « أحسست بأن هذا الماضي (الارستقراطي) هو الذي يصنع الآن هذا الحاضر المتفجر الدامي . . » (ص ١٧٢) تؤكد : « كان سلام بيروت ماقبل الحرب (سلاما قذرا) . . كان سلام استمتاع اقلية جماعة (الدولشي فيتا) على حساب حرمان الأكثرية . . لم يكن سلاما بل كان استسلاما موقتا ، فالشعب يمهل ولا يهمل . . » (ص ٤٠٠) :

رغم صدق هذا الواقع ، فان صوره صحفية ، سياحية . وأعمق منها صور القناصة . وأجمل منها ، كلها ، لهجة القلب .

يهب جنون طائفي ، ليمزق المجموعة ذات المصير الواحد ، وليطمس بالدم البريء الاحلاف الحقيقية . ليس صراع الطوائف هو السبب ، وليس هو الحل . الاسباب حيوية ، وحادة ، ولاتنحصر في حدود البلاد الصغيرة . لكن ، في البداية ، يجب أن تشتعل الفتنة .

موقف الكاتبة من الطائفية واضح : « هل يمكن أن يحدث هذا لمجرد شجار بين الذين يفضلون مناداته عبر مئذنة أو كنيسة ، لا . . لا . . لا . . هذا قناع للشجار الحقيقي . . لماذا لايواجهون الحقيقة كما هي بدلا من اتهام

www.alkottob.com

محمد وعيسى بالشجار . لماذا لايعترفون بأن الشجار ليس على امتلاك قصر من سحاب في السماء وانما على امتلاك ناطحة سحاب تعلو حتى السماء » (ص ١٥٠)

تبدأ الحرب بالقنص . تحدث شهود الايام المحترقة في بيروت ، عن القناصة المفزعين . صورهم في الكتاب قوية ، وهي رمز جيد للقتل العشوائي والجريمة . تعطي الكاتبة أكثر من صورة محددة ، معبرة ، لاتنسى . وهذا الواقع ، المستقل خارج الكاتبة ، يكسب الكوابيس الاولى قوة فنية .

يضع البقال العجوز بعض أرغفة الخبز في سلة ادلتها المرأة من شباكها . ترفع المرأة السلة : « لاحظت أن عيون بقية الجيران المختبئين خلف النوافذ كانت أيضا تتابع طيران سلة الخبز في الفضاء ، وأحسست أن قلوبنا جميعا مثل قلب واحد يصلي من أجلها . . » (ص ١٢) . يطلق قناص رصاصة فيقطع الحبل ، وتهوي السلة . وصلت أوامره : الحي كله سجين .

« ظهر كلب على الناصية . اقترب من كومة القمامة يفتش عن رزقه اليومي . ثم بدأ يسير على الرصيف ببطء شديد . . وفجأة ، انطلقت رصاصة من مكان ما فأصابت الكلب ، وسقط على الرصيف . . » (ص ٣٣) .

قتل القناصة المدينة . « كان المشهد مروعا . كانت النوافذ كلها مغلقة كأن الحي فرغ من سكانه . . كأنهم تسللوا جميعا هاربين تحت جناح الظلام . . » (ص ٢٧) صورة مذهلة . الناس وراء الشبابيك المغلقة ، والشوارع فارغة ، والقناصة على ذرى البنايات يؤكدون نفوذهم بالقتل .

تسقط امرأة تلم الغسيل من شرفتها . يسقط صياد عجوز فجأة . « هناك قناص ما ، رابض خلف بندقية ما ، هنالك رصاصة ما يمكن أن

www.alkottob.com

تنطلق في أية لحظة لتصيب رأسا من رؤوسنا . . » يترك الزوج امرأته في الشرفة لموتها . ويترك الناس الصياد لموته .

تنقطع الدروب بين الناس ، الشوارع محرمة ، والتلفون صدفة . يعلن الانسان لأهله أنه بخير في الجرائد . « أية مأساة أن نعيش في وطن يصبح فيه بقاؤنا على قيد الحياة خبرا يستحق الاعلان عنه » (ص ١١٠)

الحياة العادية حلم ماض بعيد . « صار لمس الياسمين أمنية ، والوقوف تحت السماء طموحا . . » (ص ٥٢)

التقط المراسلون الصحفيون ، والسينمائيون ، والمصورون ، والممرضات والاطباء الاجانب ، صورا اقسى من الصور التي أوردتها الكاتبة . كانوا في قلب الموت والنار . من تلك الافلام ما لم يسمح بعرضه كاملا ، رحمة بشعور المتفرجين . تأخذ هذه الصور قيمة وثائقية أكبر من الكوابيس . لكن الكوابيس تحمل الرهافة وخفقة القلب .

يرمى ثوب الطائفية على الحرب . ترفض الفتاة - البطلة التقسيم المذهبي . ما يجب أن يميز الانسان هو وضعه الطبقي . هنا يجب أن تكون هويته .

تعارض الكاتبة العداء بين الاديان ، بالحب بين شاب وفتاة من دينين مختلفين . وهذا الحب ، خط أساسي لمعاناة تمر خلالها الكوابيس . وهي تنقل الطائفية في صورها الحادة لتظهر فظاعة القتل المجاني . يقتل التلاميذ استاذهم « على الهوية » . يقول التلميذ لاستاذه وهو يوقفه أمام حاجز مسلح : « كل مانعرفه الان هو أنك من دين آخر . . دين الذين خطفوا ابن عمي وعذبوه وقتلوه . . » (ص٤١ /٤٢) . يقتلونه أمام الفتاة التي تحبه ، ويحفرون على ذراعها بالسكين رمزها الديني كيلا تنسى انتماءها الالزامي . هكذا اعطت

www.alkottob.com

الكاتبة النهايات القصوى : من ناحية ، الحب بين شخصين مختلفين دينا ، ومن ناحية قتل التلميذ استاذه بسبب الاختلاف في الدين .

يزيد حدة الموقف قتل من لاينتمي الى طائفته بالمعنى التقليدي ، وليس عليه أن يحتمل ذنوبها . لايؤمن الرجل بالتفريق المذهبي . « يؤمن بالله لكنه يجدالاديان كلها وسيلة لاقتراب الانسان من الله . . كان يصلي في أول معبد يمر به كنيسة كان أوجامعا ، وان كان يفضل الركوع على ركبتيه على شاطىء البحر ومناجاة خالقه بعيدا عن الجدران . . » (٣٥) . يصادفه مسلح قتل أخوه ، ويريد أن يقتل شخصا من الدين المقابل . كان المسلح « يبكي أيضا مثله . . قال له : أخي اطفائي ذهب ليطفىء الحريق فقتلوه وأعادوه لنا جثة . . ظنه الشاب يشكو له وكاد يرق لحاله ويسأله مزيدا من التفاصيل ، لكن وجه الاخ تحول فجأة الى وجه جزار وهو يقول له : وأنت ستموت ثمنا لذلك . . انهم من ملّتك . . » (ص ٣٦ ٣٧١) . لوى المسلح رقبة الاعزل على حافة سبيل ، وذبحه .

صورة عن الغباء الطائفي ، عن ظلمه وقهره للطرفين المتقاتلين معا . كان يمكن ان تعمق ، فلا تمر كما مرت حكايا الناس عن الحوادث اللبنانية ، سريعة ، سياحية ، من السطح . لو لحقت الكاتبة هذا العالم المعقد ، المتخلف ، الذي يسحق الناس فيه سعادتهم ويمزقون حياتهم ، لو لاحقته بالدقة التي تلاحق بها شعورها ، لقدمت موقفا ثمينا ، أدبيا وانسانيا . لكن العالم الخارجي يمر سريعا ، وقيمته في الانطباع الذي يتركه في شعورها ، كأنما يأخذ قيمته من رؤيتها له ، لا من وجوده المستقل .

أين تقف الكاتبة ، في الحرب الأهلية ؟ رغم ان موقفها انساني واضح ، نلاحظ فيه بعض تناقضات فكرية ، في النقاش بين دور الكلمة ودور

www.alkottob.com

السلاح ، مثلا ، وفي رؤية الثورة ، وفي شعور البطلة بالذنب لانها ساهمت بكتاباتها « الثورية » في الحرب . تذكر ان التغيرات التاريخية الكبرى كانت عبر الثورات المسلحة . لكنها ، انسانيا ، ترفض الدم ، والقتل . ليست الثورة ، بالضرورة ، باحثة عن الدم . ذهب ضحايا أبرياء في الثورات ولكن هذا ضروري ؟ وفي زمننا ، الا يمكن تفادي الاخطاء السابقة كلها ؟ هناك دروب مضيئة للتقدم لم يسر فيها أحد بعد . على كل حال ، ما أكثر من نكلّ بهم في أيام الظلم والارهاب السلمية . ولكن ، يجب الا تضيعنا المناقشة في التسميات غير المناسبة للأحداث ، وان ندرس كلماتنا عندما تمس وضعا عاما ، ونفرق بين الواقع وبين الامنيات .

ننطلق من أن الحرب اللبنانية لم تكن ثورة . استندت الى الظروف التي ذكرتها الكاتبة من الفقر والثراء حتى التفسخ ، والى توازن لم يعد ممكنا . ولكن اشترك فيها أكثر من طرفين ، وخلقتها وساهمت فيها الظروف الخارجية ، أكثر من النضج الداخلي ، وكانت نتائجها محسوبة وشرطا لوضع جديد .

تتردد الكاتبة في الاشتراك المسلح الى جانب الطرف الذي تتعاطف معه . وحملها المسدس في النهاية ، واحتفاظها به ، لايلغي التردد ، ولايعبر عن اختيار العنف ، ولايلغي المناقشات السابقة . قد نفسر ذلك التردد بالجذور ، وبصعوبة اتخاذ موقف في لبنان . للتردد ، في الحرب الاهلية ، سبب أكثر من رفض الدم . هل يحدث التردد في ظروف حرب وطنية وعدوان خارجي ؟ لانظن ذلك . فكثير من البنى الطبقية والرؤى الفكرية تشترك فيها . وتكون الظروف والجبهات فيها اكثر وضوحا .

لذلك ، فان الحوار بين مايشدها الى الكلمة ومايشدها الى الاشتراك المسلح ، غير مقنع . وهي لاتبدو هنا قوية فكريا . قال الكثير عن ذلك ،

www.alkottob.com

قبلها ، الذين اشتركوا بالسلاح في الثورات والحروب . ولم تنفصل الكلمة عنهم عن المدفع . عندما يكون العدوان عدوانا على آمنين ، والنضال المسلح انتزاعا لحق من ظالمين ، يكون الجلوس وراء طاولة جبنا ، لايحمّل كلمات صاحبه أية جدارة . ما أهمية الكلمة اذا لم تكن في نهايتها اتجاها الى الفعل ؟ الكلمة تعبر عن فكرة ، عن اتجاه في الحياة ، عن رؤية ، والناس الذين توجه اليهم لايرون جدارتها اذا لم تكن مقترنة بالعمل في الايام الحاسمة . لايعني هذا أن يكون الفنان محاربا اذا لم يُجد ذلك . لكن لماذا نقطع عليه طريق الاشتراك المسلح ؟ من لايستطيع ذلك قد يشترك بالتمثيل ، باذاعة متنقلة في الجبهة ، بالضماد تحت النار . ولكن ، لايحدث ذلك الا بالانطلاق من موقع فكري واضح ، وانحياز متنور ، في ظروف واضحة ، وهذا لم يكن في ظروف البطلة ، ولا في الظروف الموضوعية في تلك المدينة المقاتلة .

هناك نموذج اخر ، مناقض للكاتبة ، هو نموذج رفيقتها المقاتلة التي استشهدت . لكن صورتها مرت مبهمة ، ولم تأخذ غير كلمات قليلة من أكثر من خمسمائة صفحة ، مع انها تمثل طرفا من اطراف المتحاربين ، سبب الكوابيس . لو اهتمت الكاتبة بتوضيح عالم الاخرين الغني بالقتال والالتزام والتطلعات . هم ، أكثر منها ، من عاش على الخيط بين الحياة والموت . هم الذين عانوا الامل والفجيعة . كانوا يحلمون ، ويقاتلون ، ويتلقون الرصاص في الوجه وفي الظهر . لم تكتب بعد كلمات قلوبهم الصريحة ، ولم تقيّم بعد ، بموضوعية ورحابة صدر ، وحرية كاملة ، تجربتهم الكبرى الغنية والمؤلمة .

يدفع التردد البطلة الى ادانة نفسها ، ومن خلال ذلك ، الى لوم الاتجاه الذي تتعاطف معه ، لأنها ساهمت بعملها في دار النشر « الثورية » ،

www.alkottob.com

وبكتاباتها ، في التحضير للحرب وسفك الدم . تناقض هذه « الطيبة ، ادانة الوضع السابق ، والغنى الفاحش ، وتناقض دعوتها المتكررة للانحياز ، وانحيازها هي ، عاطفيا ، والوضوح الذي تراه في المواقف .

من خلال الحوار مع الفلسطيني المسجون ، تتضح المعسكرات والمواقع: « سجاني حليف مع عدوك . . اننا في خندق واحد ولا مفر من أن نقاتل معا . (ص ٤٠٩) وهي تميز بين المقاتلين تمييزا جميلا ، وفنيا . تسمع عزفا على الاكورديون . اغنية « الوردة هي مايهم » . « بدت الاغنية وسط ليل الدمار حزينة ومريرة . . ومع ذلك شعرت بأن هذه الأغنية هي النشيد العسكري لكثير من المقاتلين (لا القتلة) الذين حملوا السلاح من أجل أن تظل الحياة نقية وعذبة كوردة لاتذبل . . » (ص ٤٢٣) . وتميز بين رصاص ورصاص : « ما كل الرصاص نقيض الحرف . بعض هذا الرصاص الذي ينهمر هو حرف بصورة اخرى . . هو حرف بأبجدية أخرى لم يعد هنالك مفر من اللجوء اليها . . » (ص ٢٢٣) .

انها منحازة عاطفيا . « ولكنني لم أكن على الحياد . انني منحازة لطرف ضد آخر . انني منحازة للشمس والعدالة والحرية والفرح والمساواة . (٥٨) . « لاحياد في مجتمع بلا عدالة . . لاحياد في مدينة العري والفيزون . مدينة الجوع والتخمة » . (ص ٥٧) . تدين الحياد حتى انها تحكم حكما ظالما على الاكثرية « الاكثرية الصامتة هي الاكثرية المجرمة ، انها ترى الظلم وتعانيه ، لكنها تؤثر السلامة الرخيصة على الكفاح الخطر النبيل . . » .

وهي واضحة في تعاطفها الطبقي . تحس أنها بعيدة عن الاغنياء ، وترى الحنان يسكن البيوت التنك . « اولئك الذين يسكنون بيوت التنك ،

www.alkottob.com

والـذين كان يتشـدق كوكي برغبتـه في طردهم واقتـلاع بيـوتهم بالجرافة (لانها تشوه المنظر السياحي للمدموزيل بير وت) اولئك البشر ، أية عوالم من الحنان والصلابة تعشش في صدورهم النازفة . . » (ص٤١٨) .

لكنهـا عاجـزة عن المشـاركـة الفعليـة ، ممزقـة بين حب العدل والدفاع عنـه . « غمــرني حزن عميق . ليست مأســاتي انني حيــاديـة . . فأنـا منحـازة . . مأسـاتي انني لا أقـدر على معـاقـرة السلاح وأكره العنف . . (ص ١٤٠) .

الحضور المستمر ، في الكتاب ، الى جانب حضور البطلة - الكاتبة ، هو الحضور الفلسطيني . تؤكده في أكثر من مكان ، باحترام وانحياز عادل . يقول السجين الفلسطيني : « لاأذهب الى أي بلد الا وأسجن . ذنبي الوحيد أنني فلسطيني . لقد عرفت أكثر السجون الاجنبية والعربية أيضا » . والكاتبة تلمـح الى الحكم الظـالم على الفلسطينيين بالابادة وتشويه السمعة ، والتبارك الـوطني المـزيف بهم . يشيـع السجـان عن المعتقـل انه يضرب كل من يدخل زنـزانتـه . يقـول السجـين : « هذا ليس صحيحـا . ان مجرد كوني فلسطيني يجعلهم يلصقـون بي أبشع الجرائم أو أعظم الفضائل . . انهم يؤلهونني ، أو يحولونني الى مجرد . . لا أحد يهمه أن يرى وجهي الحقيقي كبشر . . كانسان متألم وغاضب ومشرد بلا وطن . . (ص ٤٠٦ /٤٠٧) .

لايهرب الفلسطينيون . فالهرب الاول ذكرى حزينة ، وهو بدء التشرد الكبـير . « أحـد معـارفي الفلسطينيين قال لي : المهم هو الصمود . جذار من مغادرة بير وت . وحين سألته : وأنت هل ستغادر بير وت ، رد بسخرية : لن تجدي العـودة الى فلسطـين » (ص ٨٢) . « تذكرت ناديا الاخرى صديقتي الفلسطينيـة . . سألتهـا منـذ أيـام هل سترحلين عن بير وت مع النازحين .

www.alkottob.com

قالت نصف ساخرة : « نحن لن نغادر بيوتنا . فقد تعلمنا درسا في فلسطين . الآن جاء دوركم لتتعلموا هذا الدرس ، . . وثمنه دوما باهظ » .

لاول مرة كان هناك صمود مشرق ، حريء ومضيء ، افتدى أخطاء الماضي والحاضر ، مثل استشهاد الانبياء . تعبيرا عن قضية وثبات . لكن الحوادث المعقدة اثبتت ايضا أن الضروري ليس الصمود فقط ، بل المرونة واليقظة والانسجام في العمل والجبهات .

تبعث الكاتبة المسيح ، الفقير ، لاعطاء الثقل للفلسطينيين ، ولاعطاء الثقل لمصيرهم ، وتجعله يصلب ، كما صلب في ذلك التاريخ البعيد . ويظهر أن الرمز يقبل اذا كان ايقونة فارغة من معناها . لكنه لايقبل واقعا راهنا ومعنى عميقا . « قالوا : المسيح ، لايهم . المهم أنك فلسطيني . فلسطيني . وأحاطوا به وصلبوه على باب الفندق الفخم » في ليلة عيد الميلاد (ص ٣٧٤) .

تمشي الكاتبة بهم حتى أبواب الفجيعة . ثم تقف . لاتتحدث عن الكارثة التي أدمتهم حتى المستقبل ، عن مآسيهم الحاسمة التي انفتحت لها أبواب الغد . لكنها تقدمت في ذلك الكثير من زملائها .

انحياز الكاتبة العاطفي ، انحياز عاقل لايحرق الطرف المعادي . يعبر عن التعلق العميق بالحرية . فمع انها الى جانب طرف دون آخر ، تدين الطائفية عامة ، والوحشية والقتل مهما كان مصدرها . هي « ضد الظلم سواء مارسه الفريق الذي انتمى اليه او الفريق الذي أقف ضده فكريا وانسانيا . » كم نتمنى لو اتسع ذلك حتى شمل أيام السلم ، جميع الانتماءات الفكرية والدينية والسياسية .

www.alkottob.com

لكنهـا ابنـة الأرض ، والطبقـة ، ولاتستطيـع أن تهرب من الحقـد والشماتة . ترى ، هي التي تكره العنف ، الكلاب التي حررتها من حبسها في المخـزن ، تأكـل صاحبهـا . ولاتندم على طريقة موته البشعة ، وترويها كأنها قصة بوليسية . وفي هذا ، الحقد الشعبي العادي على التجار . دون عواطف المثقفين . وهي تنسى الاخـلاق التي لاتسمـح بمسهـا ، مهما كان السبب : « مغفـورة خطـايـا الجائعين . . مبارك كل مايحرقونه اويدمرونه ، فقد عرفت حقا معنى الجوع . . » (ص ٣٨٠) .

رغم الوضوح والالتزام ، تمر رؤية متخلفة : سبب التقاتل « الخواء من الحب » (٣٤٨) ويمـر الاسى والشـك الـذي يضيـع الحقيقة : الكبير يأكل الصغير ، والانسان وحش في الظروف القاسية « انها الحرب الاهلية . القوي يأكل الضعيف حين تسنح له الفرصة » (ص ٢٧٩) . يمر ، كذلك ، ربط الحب بالثـورة . هذا شاعـري ، لكنه غير صحيح . فقد يكون الذين خدموا الثـورات وسـاهموا بها غير عاشقـين ، أو محافظـين ، أو لهم حبهم الخـاص . « حتى الفقـراء ضد انفسهم لانهم ضد الحب كالاغنيـاء » . ومعـروف ان الاغنياء ، أيضا يجيدون الحب ، ويتذوقونه . لهم حبهم . وقد كان الحب بين نقيضـين فكـريـين من المـوضـوعـات التي بحثهـا الادب . الاحكام السريعة الحاسمة التي تصدرها الكاتبة ، لاتصح على المستوى الانساني والادبي .

ولسنا مع التفاؤ ل السهل في أواخر الكتاب . لايبر ره لا الانسجام بين الحلفـاء ، ولا الـوضـع المحيـط العام . كان المطلوب وضعا جديدا مفتوحا . ولذلك كان استشفاف النتائج هاما ، وضروريا . وفي كل انتفاضة ، يتحمل الطـرف الاكثـر تنـورا ، مسؤوليـة وزن التضحيـة وحجم النصـر . دم الناس

www.alkottob.com

عزيـز . لكننـا لانستطيع الا ان نتعـاطف مع موقفهـا الانسـاني ، حتى في التفاؤل الذي لاتبرره الظروف .

وهكـذا ، رغم صحـة المنطلق الفكـري في خطـوطه العامة ، نجد فيه منخفضات جدية .

لاشـك ان الكتـاب الحقيقي عن المأسـاة اللبنانية لم يكتب بعد . كما لم يكتب بعـد عن أيـة حادثـة هامـة عاشهـا الوطن العربي ، ولا عن مده وجزره وأمـواجـه المضطـربـة . في كتـاب يعـبر عن احـداث لبنـان ، لابـد من رؤية الآمـال ، وخيبـة الآمـال ، والاخطاء ، والجرأة ، ورؤية الضحايا الحقيقية . لابـد ، كما في الاوقـات العصيبـة ، من أن يذوب الشخص الكاتب ، ويكبر الـواقـع . لايمكن ان تمر الاحـداث من خلال شخصيـة كاتب . هنـا ، الأنا كبـيرة عنـد الكـاتبـة . لاتمـر الشخصيـات الاخرى الا من خلالها . « أتذكر وأنسى . . ففي قاع ذلـك كله ، هنـاك أنا . . شاسعة » (٤٧٣) . يكون الشعور الفردي القوي عند النساء المتمردات ، الذكيات ، المتميزات ، مفيدا جدا اذا استعمل في تكنيك قوي وموضوعية كبيرة . من هنا ، بالضبط ، تأتي القوة الفنية ، والضعف الفني في الكتاب .

تردد الكـاتبـة مرات ومـرات ، جزئيـات شخصية قد تكون عزيزة على الانسـان في حيـاته ، ولكن ذكرها لايهم الآخرين ، ولايفيد أدبيا . وأحيانا . توحي بالاعجـاب بالنفس ، وبـالبعـد عن التـواضـع . تكرر انها تترك حيثما حلت في بلاد العـالم ، مكتبـة ، وانها تحب مكتبتها ، وانها كاتبة . « ان مأساة فنانة مثلي » (٢٦٤) . « ثم انني كفنانة . . » (ص ٢٦٥) . « الكتب التي جمعتهـا من أنحـاء العالم كله » (ص ٢٨٦) . « كوابيس بيروت التي أعيشها كل لحظـة » (٣٩٢) . « لقـد كنت دومـا وحيـدة مشـردة بين القارات والمدن

www.alkottob.com

والشوارع والرفاق . . لقد كنت دوما غجرية المدن ، ما أكاد استقر في مدينة اوروبية حتى أرحل الى اخرى . . » . هل تحتاج الكوابيس الغرق في هذه التفاصيل ؟

لكنها عندما تتحدث ببساطة عن نفسها ، ويرتبط ذلك بشيء هام في العالم ، ويوحي ، تبدو جميلة ، صادقة ، انسانية . ما أجمل هذه اللوحة . . « . . تحت المطر أقف في ظلام الحديقة وأغسل وجهي بالصابون لأنظفه من الهباب وأترك المطر يغسل كل شيء . . أيقظ الماء البارد حواسي وأنعشها ، وعاودني ذلك الشعور بالفرحة الغامرة لانني مازلت أحيا . ولانني أسرق حياتي لحظة بلحظة من هذا الموت المحيط بي » . تضطرب الصورة ، فقط ، عندما تؤكد الأنا تأكيدا اضافيا : « أيقظ الماء البارد حواسي وأنعش كل ماهو أنا وكل ماهو حقيقي في أعماقي » (ص٣٩٧) .

وتعبيرها عن الفجيعة أمام تدجين رمز الحرية ، حاد ، بسيط ، ومؤثر : « لم تعد أصوات الرصاص تخيفني . . مشهد الطيور القابعة في سجنها رغم بابها المفتوح ملأني بذهول وخوف لم أعرف لهما مثيلا طوال حياتي . . دوما تخيلت الطائر جائعا للحرية . . » (ص ١٢٠) . انها ترصد ألمها العميق لان الطيور ألفت حبسها : « ركضت الى النخلة ، ودفنت وجهي في جذعها الرطب وفاحت في أنفي رائحة الارض . . وبكيت طويلا ، طويلا وقد الصقت صدري بصدرها . . وخيل الي انها لم تعد خشبا ، وان جذعها رق لي ، وهززت الي بجذع النخلة ، وخيل الي أن شيئا رطبا نقيا يتساقط علي . وشعرت ببعض السلام يغمر روحي الممزقة . . » (ص ١٢٢) .

لكلامها عن نفسها سحر يتجاوز سحر الفضول لمعرفة قلب المرأة المخبأ

www.alkottob.com

بالجهل والاهمال . تسحر قدرتها على مراقبة نفسها ، واخراج عواطفها الى الضوء . « وأنا أقف الآن على الخيط الفاصل بين الموت والحياة ، اشعر بحواسي النائمة تستيقظ وتخرج الى سطح الوعي كغواصة ينشق البحر عنها فجأة ، موجة العنف والصخب اللامتناهي تحملني الى حيث لا أدري . . واغمض عيني كي ارى جيدا . . » (ص ٣٤) .

عندما تخرج من سجنها في البيت ، وتصل الى المنطقة الآمنة ، دون بيت ولا حبيب ولامكتبة ، تقف شاعرية ، جميلة ، انثوية . « الصفر ليس خسارة بالنسبة لي ، انه دوما بداية لقفزة أبعد مدى . . ولسقوط أكثر ايلاما . . لكنني دوما انهض من رمادي . . » . « وأنهض من تابوتي لانشر شعري في الريح كشراع خرافي لقارب مسحور . . » (ص ٤٧٠) .

ماذا يحدث لو وجهت هذا الرصد الحساس الى العالم الخارجي ، الى الشخصيات الاخرى التي تختلف عنها مزاجا ، وطباعا ، وتطلعات ، ولها الحق في حياة أدبية مستقلة ومناقضة لشخصيتها . . أو . . لو نهضت كاتبة ، مثلها حساسية وتعبيرا ، بين النساء الفقيرات ، وفتحت قلبها وعبّرت عن همومها وشقائها المستمر ، خارج دائرة الحب ؟

في صورة واحدة ، نرى الوجوه المتناقضة ، الضعيفة والقوية ، عند الكاتبة . تخترع موقفا جيدا . تجلس مع العم فؤاد ، وهوميت . انسان حي في مواجهة انسان ميت . والاثنان في جزيرة محاطة بالنار . ماذا تفعل بتلك المواجهة التي يمكن ان تكون على ذروة الانسانية والخصب والجمال الفني ؟ تتذكر انها لاتحب الحوار المهذب والاقنعة التي كان الميت يطلبها في التعامل مع الآخرين . وبعد هذه الطعنة للموقف ، يبدأ جمال فني موجز بسيط : « كنا متقابلين . متشابهين قليلا . ربما كان الفرق الوحيد بيننا هو أنه لم يعد جائعا ،

www.alkottob.com

ولم يعد بوسعه أن يتعلم شيئا جديدا » . ثم ينسد الباب . تهرب الامكانية التي تعطيها المناسبة لموقف معقد وبسيط وانساني . تندلع شخصية الكاتبة فتلغي الشخصية الاخرى ، وتسلبها حقها في وجود مستقل . أهمية هذا الرجل الذي لبس نياشينه ، وأحاط نفسه بتحفة ، وجلس ينتظر الموت انتظارا احتفاليا هي في أنه ألغى طلبه اللباقة من جارته . ثم تغرق ، فجأة ، في ذكرياتها عن يوسف ، ووحدتها بين اصدقائها . ألغي حضور الموت الحزين ، القاطع . ما كان يمكن أن يعطيه حضوره الصامت بين ميت وحي . « وها أنا احدثه بطلاقة ، أنا المرأة الوحيدة رغم زحامها ، المنطوية على جراح قلبها رغم كثرة الحاملين للقطن والشاش حولها منذ انطفأ يوسف . انطفأ الحوار في عالمي . كان جمرة الحنان الوحيدة التي أدفأت صقيع غربتي ، وجعلت سلحفاة روحي تخرج من صدفتها اليه رويدا رويدا حتى خلعتها تماما . . » (ص ٢٦٢)

حذفت ماكان ملء يديها ، في موقف نادر ، لتبحث عن نفسها وعن يوسف . وكثيرا مانراها ترمي الضوء الذي بدأت ترفعه بيديها . يزيد فظاعة ماعملته انها تستعمل أسوأ التعابير ، دفعة واحدة : صقيع غربتي ، جمرة الحنان ، سلحفاة روحي . .

يفقد الحب ، نفسه ، أهميته بعد الغاء الآخرين ، في اللحظات المتوترة ، المأساوية . يهبط الى علاقة بين امرأة ورجل ، لا اتصال بعالم ، وارتباط تذوق أكثر وأعمق للعالم بعد معرفة العاطفة الجديدة . يجب أن نترك الناس يعيشون حياتهم . وأن نحترم وجود الآخر . يجب أن تتواضع شخصية الكاتب ويترك الآخرين يتنفسون من خلال رئتيهم لا من خلاله . نحس الى اعماقنا بالعدالة ، عندما ندرك أننا لسنا مركز العالم . بذلك نصبح ، نحن

www.alkottob.com

أنفسنا ، أغنى ، ومجموعة الامزجة والشخصيات تحيطنا بوجودها المستقل . في الفن ، ذلك مبدئي ، ضروري ، والا كانت الشخصية الادبية معادة ، مملة .

لانستطيع ان نقبل اللهجة الشخصية ، الى هذا الحد ، في مثل هذا الموقف : « ولم تكن أية مفاجأة لي أن أجده ميتا . . لقد عرفت ذلك وأنا في الردهة المجاورة ، حتى قبل أن أمس يده المزرقة المتجلدة ، وحتى قبل ان تروعني نظرة عينيه السحيقة اللامبالية . . لقد حسست ذلك . . لقد التقطت كهارب ذلك . . لقد وعيته ولا أدري كيف » (ص ٢٦١) .

أبعد الالحاح على الشعور الشخصي ، الواقع الموجود موضوعيا . وأبعد البساطة . والتكلّف كثير . فنيا ، هناك مآخذ كثيرة ، غير هذه ، على الكتاب .

لانجد ارتباطا عضويا بين الكوابيس . نفتقد التماسك . لوحذفنا ، مثلا ، الكابوس ١٣٩ ، لما نقص شيء . بل هو دخيل ومهين للانسان .

وفي الكتاب تكرار كثير . لمهمة الموت ، وجولاته ، وقراءة فواتيره ، مثلا . وللحديث عن فضيات العم فؤاد ، وانها عنده أثمن من مكتبة ، وان المكتبة ، عندها ، أهم شيء .

تصب ماعندها . لاتخضع المعلومات والصور لغربال فني وتخطيط . الهام ، فنيا ، جمع نماذج مختلفة ، معبرة ، لاصبّ ما يخطر للكاتب على الورق . لذلك ، لوكان الكتاب مركزا في مئة صفحة أو أقل ، لحفظ الصفاء والحساسية ، وجمع اليها العمل الفني المتعب ، لا التدفق الصحفي ، لكان أثمن .

وتستعمل الرموز الفنية . لكن الرموز تهترىء اذا مسها الشخص في

www.alkottob.com

الذهاب والاياب ، وألح عليها ، وأكدها . هذا يقتل الشاعرية أيضا . هناك شرارات تكون أكثر اشراقا اذا بقيت شرارات . وهناك خطوط يجب ألا ترسم ثخينة . عريضة . تأكيدها هو في تركها رشيقة ، بضربة واحدة .

وهي تبدأ بمخطط ثم تتركه . يهبط حب يوسف ، الذي ارادته مبررا هاما لموقف ، وخطا وأصلا . لاتذكره أحيانا ، الا بالتداعي ، عندما يؤدي بها الحديث اليه ، صدفة . ويتناقض هذا مع وظيفته في الكوابيس . ولذلك يبدو نداؤها له فجائيا غير مبرر ، ويحدث الشيء نفسه لمخزن الحيوانات الاليفة .

الكتابة عمل في الكلمات . وفي اللغة العربية . يجب التفكير بالكلمة وانتقاؤها ، ونحتها ، وابتكارها . وذلك مسؤولية . فاللغة العربية الجديدة ستكون مما يكتب الآن . اللغة البسيطة ، المعاصرة ، المعبرة ، التي لاتنكر الصلة باللغة الماضية ، ولاتتجاهل العالم الحاضر وانجازات اللغات الاخرى . في هذا المجال ، نرى في جمل الكاتبة السرعة الصحفية ، لا سرعة التوتر : « الزقاق بارد جدا . الزقاق معتم جدا ، لكن لن يرجع ، فقد تسلل الطفل ليلا هاربا من البيت . . » (ص ٢٢٤) . « الحاج شبور سيصاب ابنه بالرصاص خطأ اثر معاقرته لرشاش حربي ، وثلاثة من رفاقه . . » (٢٤٩) . لانظن هذا القلب تجديدا . ان السرعة الصحفية ، والتكرار ، والمغالاة ، والميلودرامية ، سكين تمسك به وتقتل موهبتها وحساسيتها . نصادف تعابير قاتلة : « ورود المجاملات وعرائش اللطف » (ص ٢٦٣) . كما نصادف فواصل مملة ومرهقة « انه الجحيم » مرات ، ومرات . وتتكرر الجمل التي تعجب الكاتبة حتى الاهتراء : « آه ما أطول الليل ، حين تكون المسافة بين الموت والحياة ليلة الانتظار » (ص ٤١٢ / ٤٣٠ / ٤٤١ /

www.alkottob.com

٤٤٨) . تسكب الماء ، بالتكرار ، على هذه الشرارة . كم تبدو الكاتبة مثل غني يخشخش ذهبه باستمرار .

في أيامنا ، أيام العلم والرياضيات ، ثقل الكلمة بايجازها وبساطتها . لايعطي اغداق العواطف المسرحية أثرا عميقا ، بل سطحيا . يبدأ أحد الكوابيس هكذا : « وعرف كيف يمكن للمساء ان يكون حزينا . . » (ص ١٨٩) . ويبدأ آخر بداية صاعقة .

« الغربة قدري . .

رائحة الغرفة غير المألوفة . . » (ص ١٢٥) رغم ان ماتذكره عن الغربة لايفسر تلك المأساوية . ويبدأ كابوس آخر : « ماأزال ممزقة ووحيدة ، ومرمية في فراشي كخرقة . . » (ص ٢١٢) . وفي كابوس آخر نداء تمثيلي : « آه يايوسف . . ياعيناك ياصدرك ، ياصوتك يا أنت . . تقدم . . » (ص ١٢٥) . كم يقتل التكلف والمغالاة المضخمة ، الشاعرية : « اسكب عمري في غربال الزمن ، وأترك الحقيقة تفصل قمحه عن شعيره » (ص ٤٧٣) .

رغم ذلك ، رغم التناقضات الفكرية ، والضعف الفني ، وطابع الكتاب السريع ، فهو يؤكد قوة الرصد عند الكاتبة ، وشفافيتها ، وحساسيتها الفطرية والمثقفة . شيء مفرح أن يرفع اليك انسان من أعماقه ، انطباعاته ، وشعوره . تقول ، أحيانا ، وأنت تقرأ : هذا هو ماكان يجب ملاحظته ، هذا هو .

الجميل ، والجديد ، والجيد ، هو الاصرار ببساطة عادية طبيعية ، على وضع الفتاة الند . تأكيدها أن الخوف انساني لا أنثوي ، وان « الصلابة

www.alkottob.com

الداخلية لا تسكن بالضرورة شاربين مفتولين . . وانها قد تقبع تحت الملمس الناعم لامرأة هشة المظهر . . » ؟ ص ٨ .) .

والكتاب بلسان امرأة . وفي هذا ، رغم التردد ، روح معركة ، تلغي جميع المواقف المتخلفة من المرأة وتراثها في القلوب . انطلاق المرأة نحو الرجل ، بجرأة ، نوع من انتفاضة . حديثها ، بصراحة ، عن الحب ، تقدم . فذلك سلب لدور الرجل القديم . واشعار بأن المرأة أيضا تمشي الى الرجل ، ولا تخجل بشعورها ، ولا تخبئه . لكن وضع امرأة في حرب ، ومشاركتها ، مثل أي رجل أعزل ، ومن وجهة نظر انسانية ، له أهمية خاصة . هذه علامة على الطريق .

www.alkottob.com

السعادة المستحيلة

عن تشيخوف

« أحب هذه المياه ، والاشجار ، والسماء ، أحس بالطبيعة ، تثير في العواطف ، والرغبة التي لاتقاوم في أن أكتب ، لكنني لست رسام مناظر طبيعية ، فقط ، فأنا مواطن ، أحب الوطن والشعب ، وأشعر أنني اذا كنت كاتبا فأنا ملزم بالحديث عن الشعب ، عن عذابه ، عن مستقبله ، بالحديث عن العلم ، عن حقوق الانسان ، وغير ذلك ، وغير ذلك » (النورس / ص ٤٥٢ / الجزء ٩ / المؤلفات / طبعة الروسية ١٩٦٣) .

كلمات الكاتب تريغورين في النورس هي كلمات تشيخوف . تفسر الصورة العامة التي قدمها أدبه عن ناس عصره ، وضعفهم ، وهمومهم ، وتعلقهم بالحياة . حديث قلوبهم الحميم ، في جلسة عادية ، غير متألقة . الدراسة الواقعية ، والشاعرية ، العادلة ، التي لاتشوه النموذج المعادي ، ولاتنمق النموذج المحبوب . لكنها لاتخفي المواقع .

قد يبدو لنا ، من السطح ، أن الكاتب يتجنب الاحكام . لكننا عندما ندرسه ، نكتشف أنه يتجنب الاسلوب الفني الذي ينتهي بحكمة أخلاقية . وأنه وهو يختار موضوعاته وشخصياته ، يحب ويكره . لكنه يتميز بالعدالة الفنية ، بالمسؤولية الفنية التي تجعله يضيء كل مايكتب عنه .

يسحرنا في أدبه حنانه الرقيق ، حزنه على الحياة المبذّرة ، الخالية من

www.alkottob.com

العمـــل والسعـادة . قدرتـه على ادانـة أبطـالـه العـاجـزين ، وعلى العطف عليهم . قدرتـه على نشر الابطال الانتهازيين ، القساة ، الكسالى ، بصدق فني . وعلى ألا يحبهم . يسحرنا شعوره بمسؤوليته عن سعادة الانسان . نبشه الحياة أمامه كي يعي أنها بائسة ، غير جديرة به .

من أسبـاب فشـل الكـاتب المبتـدىء ، تريبليف (النـورس) ، أنـه « ليست لديـه قضـايـا محددة » . أنـه يعطي انطبـاعـا ، وفي الادب لايمكن الاستمرار في الانطباعات وحدها . في كل عمل مهم من أعمال تشيخوف قضية والقضيـة الاسـاسيـة التي تنسـاب في كل أعـمـالـه ، هي ضياع الحياة والشباب والجمال والقوة ، عبثا .

الحيـاة في الصـورة الأدبيـة ، مأسـاويـة ، مغلقة . زمن راكد تغيب منه امكـانيـة التغيـير . لايستطيـع الابطال انقاذ أنفسهم ، ولا مساعدة من يحتاج مسـاعـدتهم . لذلك قيل : أبطال تشيخوف عاجزون . وهذا صحيح . لكن ضعف الابطـال هو تعبـير عن فترة من الزمن الاجتماعي ، عن فترة من العجز الاجتماعي . والمسألة هي مسألة لمن ينفتح أفق تلك الحياة ، وأمام من ينسد . فالبطـل العـاجـز هو الـذكي ، الحسـاس ، الـذي يحلم بحيـاة غنيـة بالعمـل والحب ، بعـدالـة عامة وحياة مهذبة ، انسانية . أما البطل الناجح السعيد فهو المتسلط ، الفج ، الطامح الى شيء صغير : بيت أو أرض أو ثروة .

وهـذا فهم كاتب ذكي عصـره . وشعـوره باتجـاهه ورياحه . فالسنوات الثـمانون ، والسنوات التسعون ، التي نضج فيها أبطال تشيخوف ، زمن كامد في روسيا القيصرية . تميزت بهيمنة الرجعية ، والركود الجماهيري . يقول عنها مفكـر ثوري روسي : يتغـير شكـل الحركة الاجتماعية ، تستبدل فترات نشاط الجـمـاهـير الشعبية السياسي المباشر ، بفترات يسيطر فيها السكون الخارجي ،

www.alkottob.com

تسكن أو تنام فيها الجماهير منسية ، مسحوقة بالعمل الشاق والحاجة . يحدث فيها تثوير وسائل الانتاج بسرعة . ويستخلص فيها العقل الانساني المتقدم دروس الماضي ، ويبني مخططات وطرق التحليل .

انه الزمن الذي يشبه السجن . يستطيع فيه الفكر ان يحاكم ويستنتج ، لكن الحرية فيه ممنوعة . انه « المهجع السادس » . والحياة تبدو فيه مملة ، قاتمة ، لاتحقق أي أمل انساني واسع .

فما هو الطموح الذي يمكن أن تحققه هذه الحياة . أية آفاق يمكن ان تكون مفتوحة فيها أمام الابطال الأدبيين . وما هي السعادة الممكنة فيها . .

ينمو البطل الأدبي وينكشف ، وهو يبحث عن طريقه واتجاهه . يشعر بأنه محاصر بالزمن . ويحاول أن يتجاوزه . تظهر قدرته على الانتصار والانكسار ، عذابه واضطراباته . وربما تكون قضية الادب الدائمة هي بحث الانسان عن « المخرج » الذي يتجاوز كل مخرج نجده في أرض الواقع ، السعي الى تجاوز الراهن حتى عندما يصبح انتصارا قديما .

يختار تشيخوف الانسان العادي . ويهمنا الافق الممكن له . للنموذج . العام الذي يصل بين شريحة انسانية . لا الحل الفردي الذي يتخطى به شخص امكانيات اشباهه . فأفق البطل الأدبي ، وسعادته ، مرتبطة بالافق العام الممكن للشريحة في ذلك المجتمع . باستعداد البنية الواقعية للظلم أو للعدالة .

لايخترع الكاتب آفاق أبطاله . فليس خياله مجردا عن الزمن واحتمالاته على الأرض . تفتح القوى البشرية ، الواقعية ، الافق أمام الابطال . توسع رؤيتهم . وعندما تكسر الواقع وتخلق أشكالا جديدة فيه ، لايستطيع الابطال الادبيون أن يكونوا على صورة الامس . نعم . لايخترع الكاتب أفقا وسعادة

www.alkottob.com

وتمردا لايوجد في حياة شريحة اجتماعية . بل يرجع صدى الزمن ، ويستشف احتمالاته .

يعبر أدب تشيخوف عن البحث عن حياة عادلة ، أخلاقية ، منتجة ، عقلانية ، في مستويات الانسان المختلفة ، وتنوع قدرتها على الحلم والمحاكمة . نرى امرأة تتأمل رجلا نائما ، عليه آثار حياة تختلف عن حياتها مع فلاح في أرض بعيدة . نرى الفلاحين غير القادرين على الحلم ، بل على الصبر الشعبي . والفتيات المتعلمات ، والرجال المثقفين المرميين في الريف ، القادرين على فهم تفاهة حياتهم ، وعلى الحلم بغيرها ، وغير قادرين على البدء بحياة أجمل منها .

ونلاحظ ان بين هؤلاء المعذبين بالواقع الكامد ، وبين الحالمين ، والساعين الى الغد ، والناجحين القساة ، نساء . يتنوع نموذج المرأة في شرائحها المختلفة ، في لباسها القروي المتميز ، طباعها ، وكلماتها وسلوكها . واذا تذكرنا ان الأدب الروسي يتميز بغنى نموذج المرأة ، واحترامها ، ورصدها . وان فيه : آنا كارنينا ، ناتاشاروستوفا ، ناستاسيا فيليبوفنا ، قدرنا أن عمل تشيخوف لم يكن سهلا . لم يكن يعمل في صحراء . ولايزال الأدب الذي عاصره حتى الآن ، الادب الكبير في العالم . ومع ذلك ، يضع تشيخوف ، بهدوء ، ودقة ، لهجته وطريقته . نماذجه النسائية الجميلة . يجد مزاج وصوت الزمن . ويستطيع أن يعلو ، وأن يوسع نظرته ويصبح عميقا ، انسانيا ، حتى يجد مكانا في تلك الدنيا الأدبية الفنية . وأن يقول بلسان الكاتب تريغورين : يتسع المكان للجميع .

في مستوى الفلاحين ، لاتوجد المناقشات التي نسمعها في مسرحيات تشيخوف ، عن الحياة ومعناها وهدفها ، وعن الأحلام بالمستقبل . والطموح

www.alkottob.com

الى الحياة النظيفة الجديدة ، طموح مبهم ، أحيانا . وأحيانا ، هوملامسة الحياة الشفافة البعيدة من خلال الطبيعة والايمان .

تحمل الفلاحة الفقيرة ليبا طفلها الميت ، وتمشي في البرية ، في الليل . « آه ، كم تحس بالوحدة في السهل ليلا ، وسط ذلك الغناء ، عندما لاتستطيع أن تغني . وسط صيحات الفرح ، عندما لاتستطيع أن تفرح ، عندما ينظر اليك من السماء هلال ، هو أيضا وحيد ، وعنده سيان ، أربيع أم شتاء ، أكان الناس أحياء أم أموات » . . (ص ٤٤١ / الجزء ٨ / المؤلفات)

تلتقي ليبا في الليل بعجوز ، وتتحدث معه . يهدئها فيه قبول الحياة الشعبي ، بحلوها ومرها ، والصمود فيها ، والرغبة الدائمة فيها . صوت الانسان الذي أكل كثيرا من المرارة ، لكنه يستمر في الرغبة في الحياة . وهو مايحتاج اليه الانسان الحزين . وان كان لايبدل الواقع ، ولايفتح أفقا غير أفق احتمال الحياة وضرورة الصمود فيها .

تحلم اولغا (الفلاحون) بالنظافة والجمال من خلال الكتاب الوحيد القريب منها : الانجيل : وتهدىء بقصصه من حولها . تجذبها في موسكو ، الدقة والنظافة التي لاتوجد في القرية . ولكن من هي في موسكو ؟ خادمة تستقدمها المدينة من الريف . تعود الى موسكو لتشتغل هناك . وعندما تبتعد عن الضيعة البائسة هي وابنتها ، تحسان بالحرية والفرح وهما تتفرجان على الحقول والشجر . لكن الحياة لم تقدم لهما حلا عظيما . وهذا الفرح علاقة بين الانسان وبين الأرض والشمس ، هومواجهة الفقراء حياتهم ، وليس المشية الى الغد .

www.alkottob.com

لكن صرخة ما العمل ، صرخة الأبطال المحاصرين بالزمن . صرخة القادرين على مناقشة الحياة ، والتفكير فيها ، ومحاكمتها .

تقول زينايدا بتروفنا : « أنت عانيت وجربت كثيرا ، وتعرف الحياة أكثر مما أعرفها . فكر جديا وقل لي : ماذا أعمل ، علمني . اذا لم تكن لديك القوة كي تتقدم وتجر الآخرين معك ، فقل لي على الأقل أين أسير . أنا انسان حي ، حساس ، مفكر ، يؤلمني أن أقع في وضع زائف وأن أقوم بدور غير مناسب . لا ألومك ، لا أدينك ، وانما أسألك فقط » . (قصة رجل مجهول / ص ٢٦٤ / الجزء ٧ / المؤلفات)

وتقول كاتيا : « لاأستطيع أن أستمر في الحياة هكذا . لاأستطيع . بالله قل لي بسرعة ، حالا ، ماذا أعمل ، قل لي ماذا اعمل » (قصة مملة / ص ٣٣١ / الجزء ٦) .

لا الثوري الذي هجر ايمانه القديم ، يستطيع أن يساعد زينايدا . ولا الاستاذ الذي يغيب عنه الاهتمام بالعواطف الانسانية ، يستطيع أن يساعد كاتيا .

ماذا تطلب هذه اليد الممدوة الى الحياة ؟ يضع الانسان ، في البداية ، هدفا صغيرا . تظن زينايدا أن سعادتها في رجل تحبه ، وحياة صغيرة ، بيتية . وتظن كاتيا أن المسرح ، ثم الحب ، هما الافق . لكن الفشل يكشف لهما انهما تحتاجان الى فهم معنى الحياة ، طريقها الرحب . انهما تحتاجان الى هدف ممتلىء ، مكان أساسي . أن تكونا فاعلتين . وكأنما تدركان أن الدرب الشخصي صغير ، ضيق . وأنه مرتبط ، بالنهاية ، بوضع الحياة العامة . وهنا وعيهما ، وهزيمتهما .

ويمكن القول : ينهزم البطل كلما كان طموحه واسعا ، عميقا ،

www.alkottob.com

انسانيا . لان ذلك الطموح يتناقض مع مسيرة ذلك الزمن . وينتصر البطل ، كلما فهم الموجة التي يمكن ان ترفعه . كلما كان طموحه شخصيا ، صغيرا ، منفصلا عن سعادة من حوله .

اكسينيا امرأة معافاة ، عملية ، نشيطة . تفتحت « رجل أعمال » ماهرة . تدير تجارة زوجها وحميها . « تعرف من يمكن أن يستدين ، ومن لايمكنه ان يستدين ، وتحتفظ بالمفاتيح في يدها ، لاتثق حتى بزوجها . طموحة الى توسيع عملها . تخطط لبناء معمل قريب . لايردها عن هوسها بعملها شفقة أوحب . تصب فوق طفل صغير ماء الغسيل الذي يغلي ، لانه وريث الارض التي ستبني عليها معمل القرميد . وتطرد أمه ثم تجوع حماها العجوز ، وتطرده . وعندما تختار عشيقا يبدو لنا أنها تقبله بروح عملية ، لأن وقت ذلك حان . وهي تتميز بحساسية البوصلة . فتفهم أن انشغال زوجة حميها بالاحسان الى المتسولين ، وتربية الزهر ، وتلميع البيت ، ليس خطرا على أعمالها .

اكسينيا ، نموذج متألق ، له في تلك الحياة سند واقعي للسعادة . تبني معملها . وتذهب اليه في الصباح ، جميلة ، سعيدة ، قوية .

ناتاشا في (الاخوات الثلاث) هي هذا النموذج المتسلط ، المنتصر .

تدخل بيت الاخوات كالخجول المرتبكة . لكنها بعد أن تتزوج الأخ ، تراقب الاخوات كأنها مسؤولة عنهن . تنتقد لباسهن . تمنع زوارهن من السهر . تسلبهن غرفهن لتضع فيها أولادها . تطرد مربية الاخوات لانها عجوز لاقدرة لها على العمل . تغرق زوجها في التفاهة وتبعده عن طموحه العلمي . تحوله الى رجل راض على وظيفة كان يعتبرها تافهة ، تجعله يرهن بيت الاخوات

www.alkottob.com

ويسلمها المال . ثم تنتقي عشيقا . وكل ذلك في مظهر ثقافي ، مهذب ، وحرص على الهدوء والترتيب ، وحب الأطفال .

في النهاية ، عندما يتضح للأخوات الثلاث أن الحياة ستستمر كما كانت ، وأن حلمهن ابتعد ، تدور ناتاشا حول سعادتها الصغيرة ، وانتصارها . « اذن ، سأكون غدا وحدي هنا » . غدا تقطع الشجر وتزرع الزهور مكانه . صورة انتصارها . فما هذه الزهور التي يزرعها انسان يستطيع أن يقطع الشجر ، يستطيع الا يحس بألم الناس حوله .

كأنما يقترن النجاح بمزاج عملي ، بعيد عن العواطف ، والحساسية . بشيء من عدم التعاطف مع الآخرين . بالرأس البارد . لكن النماذج الناجحة متفاوتة ، متنوعة . في (النورس) تبدو الممثلة الناجحة ، أركادينا ، شابة . تفسر سبب ذلك بأنها تعمل ، بأنها دائما بين الناس . لاتظهر الا في كامل زينتها وملابسها . قدرة على تجاوز عادة الكسل ؟ فهم ان طريق الحياة الاساسية تكريس الانسان نفسه لعمله ؟ لكن الجانب الآخر من الحقيقة أن كل هذا يدور في حياة شخصية صغيرة . انها تهمل ابنها ، تتركه يذوب في حياة الريف ، دون مال ، دون عمل ، دون ثياب لائقة . وعندما يصبح كاتبا لاتقرأ مايكتب . فوقتها لايتسع للاهتمام بابنها . يتسع للعب بالورق ، والحب ، والاحاديث عن النجاح الشخصي . لاتنتبه أركادينا الى أن أخاها يحتاج ان يعيش في المدينة ، ولو سنة واحدة . ان يخرج من الريف ، ويحس قبيل الموت ، بأنه عاش . أركادينا بعيدة عن بؤس القريبين منها .

نجاح لباخين (بستان الكرز) أكثر ارتباطاً من أي نجاح آخر بأسس الحياة الاجتماعية . لباخين شغيل دؤوب ، لايطيق أن تكون يداه الى جنبيه . عقل يحسب . يرى بستان الكرز امكانية تجارية مناسبة ، لاشجرا

www.alkottob.com

جميلا . وهو الذي يبني العلاقات الاجتماعية الجديدة ، على أنقاض القديمة . طبعه ملائم للحياة الجديدة .

يستلزم النجاح فهم الشروط الحياتية المعروضة ، والتلاؤم معها . لكن طموح أبطال تشيخوف ، الخاسرين ، أكبر من بيت ، وأرض ، ومعمل ، ورجل . كأن سعادتهم الشخصية مرتبطة بالسعادة العامة ، بالعمل الانساني ، والحياة الرحبة . طموح لايمكن أن يحققه ذلك الزمن . فيتمزق الانسان بين واقعه وبين توجهه الشاعري الى الحياة .

في مسرحيات تشيخوف الاربع ، يقف الابطال أمام حياتهم ، يستعرضونها ، يعرضون تعاستهم وأملهم ، يحاكمون الحياة الراهنة ، ويحلمون بتجاوزها .

نرى رجالا يكتشفون ، في الاربعين ، انهم لم يعيشوا بعد ، يرددون : عمري أربعون سنة ، عمري خمسون سنة . . يحددون بذلك أن فرصة الحب وتحقيق الاحلام مرت .

اوستروف ، طبيب في الريف ، يتقدم على من حوله من الناس الذين يأكلون ويشربون . يفكر في الشجر ، في الغابات ، والحياة . يزرع غابة . يرسم خرائط عن الطبيعة والحيوانات التي أبادها الإهمال . يقول كلمة تشيخوف الشهيرة : « يجب أن يكون كل شيء في الانسان جميلا : الوجه ، والملابس ، والروح ، والافكار » ويقول : « لا يمكن أن تكون الحياة الخاملة ، نقية » .

لم يسترح ، خلال عمله في الريف ، يوما . يستدعى في الليل . يشتغل من الصباح الى المساء . يعيش بين فلاحين وسخين ، خشنين ، في ريف بعيد . ويحس أنه أصبح مثلهم . أنه الآن ، لايحب أحدا ، ولايريد

www.alkottob.com

شيئا . يقول « لم لا أشيخ ، والحياة نفسها ، مملة ، غبية ، وسخة » (ص ٨٤٣ / الجزء ٩ / المؤلفات) يبدو كأنه ينتهي الى اللامبالاة ، يسكر . ولا يعنيه أن تحبه سونيا .

تقول له سونيا . وهي ترجوه الا يشرب : « هذا لا يناسبك ، أنت رشيق ، وصوتك رقيق . أنت أجمل من كل من أعرف ؟ فلماذا تريد أن تشبه الناس العاديين ، الذين يشربون ويلعبون بالورق ؟ أرجوك ، لا تفعل هذا ! تقول ان الناس لا يبدعون ، وانما يحطمون ما أعطوه . لماذا ، اذن ، تحطم نفسك » (ص ٥٠٣ / الجزء ٩ / المؤلفات)

لماذا يرتفع غيم أسود بين هذا الرجل ، الواعي ، حامل المثل الكبيرة ، الذي يحس بالمسؤولية عن الشجر والأرض ، وبين الأفق .

يقول لسونيا : « عندما تمشين في الغابة في ليلة حالكة ، ويضيء في البعد ضوء . فانك لا تلاحظين التعب ، ولا العتمة ، ولا الاغصان الشائكة التي تضرب وجهك . . تعرفين أنني أشتغل أكثر من اي انسان في المنطقة ، والقدر يضربني دون توقف . أعاني أحيانا من عذاب لا يحتمل ، ولكن ليس لي في البعد ضوء . لا أنتظر لنفسي شيئا . ولا أحب الناس » . . (ص ٥٠٢ / المصدر نفسه) .

تقومه يلينا اندرييفا تقويما صحيحا . تقول لسونيا : « تعرفين مامعنى الموهبة ، الجرأة ، الرأس الحر ، الانطلاق الواسع . . يزرع الشجر ، ويتنبأ بما سيكون من ذلك بعد ألف سنة ، يتخيل سعادة الانسانية . . هؤلاء الناس نادرون . ويجب أن نحبهم . انه يشرب . وهو خشن ، أحيانا . . في روسيا ، لا يمكن ان يكون الانسان الموهوب نقيا . فكري في حياة هذا الطبيب . وسخ في الطرقات ، عواصف ثلجية ، مسافات شاسعة ، شعب

www.alkottob.com

خشن متوحش . . » من يكدح في هذه الظروف ، لايستطيع أن يحافظ على نظافته ووعيه حتى سن الأربعين .

كان الخال فانيا ، أيضا ، شخصية متألقة ، له معتقدات محددة . اشتغل في الضيعة كي يفي ثمن أرض ليست له ، ويؤمن لزوج أخته دخلا . وها هي الحياة تطحنه . يقول له اوستروف . ان في المنطقة رجلان مثقفان ، هما أنت وأنا . ولكن في عشر سنوات حطمتنا الحياة . أصبحنا تافهين كالآخرين .

يعلق فانيا على الكراريس التي تقرأها أمه : « منذ خمسين نتكلم ، ونتكلم ، ونقرأ الكراريس ، حان الوقت كي تنهي ذلك » . وتقول الاخوات الثلاث الشيء نفسه . كأن هذا نقد الحياة التي تكثر فيها الكلمات والمناقشات ، وتغيب منها القوى الانسانية التي تستطيع أن تغيرها . فالكلمات تصبح ذات معنى عندما تنعكس في عمل ما ، عندما تعني حركة نحو الافق .

في ذلك السكون القاتم ، يذوي الابطال . لكن الحياة على درجة من التأزم والتفاهة تجعل استمرارها في وضعها ذاك مستحيلا . لذلك يحلم الابطال . ولاشك ان القدرة على الحلم ميزة هامة ضرورية ، في الزمن القاتم . هذا الحلم هو ما يتناوله الأبطال التشيخوفيون المتقدمون ، ويذهبون به الى الحياة الجديدة . .

يقول فانيا لاوستروف : « لوكان يمكن أن نعيش بقية الحياة بشكل جديد ! أن نصحو في صباح مشرق هادىء ، ونحس أنك بدأت تعيش من جديد ، وأن الماضي كله منسي . »

يبقى الأبطال في أمكنتهم ، رغم تذمرهم وطموحهم . ويبدو العمل المتعب ، الذي يحطم ولاينعش ، كأنه المهرب والعزاء . لكن حزن الابطال

www.alkottob.com

لايصغّرهم . يوسعهم . يجعل شخصياتهم اجتماعية ، تحمل هما عاما ، هم زمن ليست فيه تغيرات كبيرة .

لاينفصل الحلم بالحياة الجديدة ، عن الحلم بالعمل الانساني . والبحث عن العمل المنتج ، الذي يتألق فيه الانسان ويشع على ماحوله ، مرتبط بالظروف والحياة الراهنة . لذلك هو مناسبة لعذاب الأبطال ، وشعورهم بالتعاسة .

يربط تشيخوف الجدارة الانسانية بالعمل . ونعرف الحاحه على ضرورة عمل الانسان ، وعمله الدؤوب ، هو نفسه . نرى أبطاله المحبوبين أشخاصا يبذلون جهدا . ونراه ينصح ليكا ميزينوفا ، في رسائله ، أن تنفض عنها الكسل ، وأن تعمل . يقول الطبيب اوستروف عن يلينا اندرييفنا : ليست لديها مهمات . يشتغل الآخرون لأجلها . . والحياة الخاملة لايمكن أن تكون نقية .

تقول ايرينا : « عندما أفقت هذا الصباح ، ونهضت واغتسلت ، بدا لي فجأة أن كل شيء في هذا العالم واضح ، وأني أعرف لماذا يجب أن أعيش . . يجب أن يعمل الانسان ، أن يشتغل ويعرق ، كائنا من كان ، وفي هذا فقط يتلخص معنى وهدف حياته . . » (ص ٥٣٦ / الجزء ٩ / المؤلفات) .

ويتصور توزنباخ أن حياته الجديدة تبدأ بالعمل . يحس بالعاصفة الاجتماعية القادمة ، بأن الحياة لن تكون ممكنة دون عمل . يقول : « اتى زمن يقترب فيه من كل شخص منا ، شيء عظيم . تتجمع عاصفة قوية ، صحية ، تسير ، وها هي قريبة ، وستنفخ من مجتمعنا الكسل ، واللامبالاة .

www.alkottob.com

وبعد حوالي خمس وعشرين سنة ، ثلاثين سنة ، سيعمل كل انسان ، كل انسان » (ص ٥٣٧ / الجزء ٩ / المؤلفات) .

لكن العمل ليس جزيرة منعزلة ، هاربة من الطقس الاجتماعي . ولايمكن ان يكون انسانيا ، تتحقق فيه السعادة ، في مجتمع غير انساني ، متخلف ، قاتم . بل هو هناك ، مناسبة لطحن الانسان .

ليست يلينا اندرييفنا سعيدة . لأنها لاتعمل . لانها ملحقة بزوجها ومثلها ماشا (الاخوات الثلاث) . لكن اوستروف ، وفانيا ، وسونيا ، الذين يعملون ، ليسوا أقل تعاسة منهما . وسبب التعاسة هو هذه الحياة الراهنة التي لاتتفتح فيها القوة والعواطف الانسانية في زمانها .

تحس اولغا (الاخوات الثلاث) بصداع دائم في رأسها ، بعد العمل في المدرسة ، يوميا ، من الصباح الى المساء . تشعر بأنها تنزف ، يوميا ، قواها وشبابها .

وتعود ايرينا (الاخوات الثلاث) من عملها في البرق ، نحيفة ، متعبة . تقول : « لاأحب البرق . لاأحبه . » « يجب ان أبحث عن عمل آخر ، فهذا العمل لايناسبني . ليس فيه مأأردته ، ماحلمت به . عمل دون شعر ، دون فكر . . » (ص ٥٥٨ / الجزء ٩ / المؤلفات) .

الاخوات الثلاث ، فتيات مثقفات ، رقيقات ، لايتحملن رؤية القسوة على الآخرين واهانتهم . يعرفن اللغات الفرنسية ، والالمانية ، والانكليزية . وتعرف ايرينا ، فوق ذلك ، الايطالية . تعزف ماشا عزفا رائعا في مدينة لايتذوق فيها الموسيقى أحد . لها موهبة أن « تعزف عزفا جميلا وأنت تعي أنه لايفهمك أحد » . وكل هذا العمل ، والجمال ، والموهبة ، مهدورة ، والشعور بهدرها يزيد التعاسة .

www.alkottob.com

يصبح اوستروف ، الرقيق ، المثقف ، خشنا ، قاسيا ، وتقسو ايرينا على المرأة التي أتت تبرق لأخيها بوفاة ابنها . فأية رقة يستطيع أن يحافظ عليها انسان منهك ، يشعر بتدمير حياته .

يكتشف الأبطال أن أحلامهم لن تتحقق ، وربما يعرفون ذلك منذ البداية . لكن الامل لايزال ممكنا ، وهو يحفظ بينهم وبين الواقع بعدا . تأتي لحظة الانكسار ، أو مواجهة العجز .

لاتحب اولغا أن تكون مديرة مدرسة . فتصبح مديرة مدرسة . لاتتصور ايرينا أنها يمكن أن تتزوج دون حب . وها هي تقبل الزواج دون حب ، لعله يفتح الافق المغلق . تفقد الاخوات البيت ، والاخ ، والخطيب . يفهمن أن هجرتهن من الريف الى موسكو ، رمز الامتلاء والثقافة والحياة الجديدة ، حلم مستحيل .

تقول ايرينا : « الحياة جميلة . نعم . ولكن ماذا لو كانت تبدو هكذا ، فقط . ليست حياتنا نحن الاخوات الثلاث ، حتى الان ، جميلة . طحنتنا كأننا عشب طفيلي » (ص ٥٤٩ / الجزء ٩ / المؤلفات) .

لذلك لم يكن الهرب من الريف ، الذي يغري الابطال ، يعني وضوح الحياة وراء الريف . كان يعني ضرورة الخروج من الحياة الراهنة . ولم يكن ذلك ممكنا حتى تحرك شيء في الواقع . تراكمت التعاسة ، وأتت سنوات ١٩٠٠ .

وهكذا ، فالتعاسة والفشل خط في ملامح أبطال تشيخوف الانسانيين ، الاذكياء ، في السنوات التي لايقدم فيها الواقع امكانية السعادة العامة ، والعمل المنتج ، والحب . وتكون فيها أمنية الانسان ، أملاً قوياً ، وحلماً ، في الوقت نفسه : « ما أجمل الاشجار ، وكم يجب أن تكون الحياة حولها جميلة » .

www.alkottob.com

في هذه الحياة ، يبدو الحب ، كالعمل ، أزمة . مناسبة تنكسر فيها حياة الأبطال . تحب ماشا المتزوجة ، فرشينين المتزوج . يعرف فانيا يلينا اندرييفنا ، قبل أن تتزوج ، لكنه يحبها عندما تكون متزوجة . تحب ماشا ويحب تريبليف الشابة نينا . وهذه تحب تريغورين . لم يحب غوروف (السيدة ذات - الكلبة) الا عندما أصبح شائبا ، الحب الممنوع ، الحب الذي لاحق له في الشرعية .

يقول أحد أبطال تيشخوف : « لاتوجد السعادة ، ويجب الا توجد . واذا كان هناك معنى وهدف في الحياة ، فهذا المغنى والهدف ليس في سعادتنا ، وانما في شيء آخر أكثر عقلانية وعظمة » (ص ٣٠٣ / الجزء ٨ / المؤلفات) .

يجب ألا توجد السعادة في حياة يقدم تشيخوف صورتها التالية : انظروا الى وقاحة الأقوياء وكسلهم ، واستسلام الضعفاء . فيها الكسل والكذب والفقر . ومع ذلك ، لايوجد مواطن واحد ، بين خمسين ألف مواطن في هذه البلدة ، يمكنه أن يصرخ احتجاجا عليها . نرى الذين يشترون ، ويأكلون ، وينامون . وتبقى الفظاعة والبؤس وراء الكواليس . لكن الاحصاء يبوح بالحقيقة ، بعدد المجانين ، وعدد الأطفال الذين يموتون جوعا . وهكذا فالسعيد انما هو سعيد لان التعساء يحتملون عذابهم ويصمتون . « ودون هذا الصمت لاتمكن تلك السعادة » . (ص ٣٠١ / الجزء ٨ / المؤلفات) .

عندما يعترض تشيخوف على رؤية ترى أن مسرحياته باكية ، يوضح رأيه في السعادة المستحيلة ، والطريق الى السعادة الممكنة : أردت شيئا آخر . أردت أن أقول للناس ، بصدق وصراحة ، انظروا الى أنفسكم ، وتبينوا كم

www.alkottob.com

حياتكم سيئة ، مملة . القضية الاساسية ، أن يفهم الناس حالتهم ، فعندما يفهمونها يبدلونها ويخلقون حياة أفضل منها .

هكذا ، تتصل رؤية السعادة ، عند تشيخوف ، صلة وثيقة بقضية مهمة في الادب : هي وصول الانسان الى الوعي . اكتشاف الحقيقة ، أو يقظة البطل . القضية المهمة في الحياة ، معرفة الكون ، والطبيعة ، والمجتمع . معرفة حقيقة التناقض العظيم بين مايستحقه الانسان وبين مايأخذه . التناقض بين جمال الفجر ، والربيع ، والاشجار ، وبين حياة الانسان البراهنة . اليقظة هي التي تدفع الانسان من الظروف الحاضرة الى الظروف التالية .

يقدر تشيخوف مسؤولية الانسان عن كل شيء في الحياة . لذلك لايعني الشوق الى الحياة الجديدة انتظارا ساكنا ، سلبيا ، بل ضرورة حركة القوة الانسانية نحوها : « يقولون لي لايتحقق كل شيء دفعة واحدة ، فكل فكرة تتحقق في الحياة بالتدريج ، في وقتها . ولكن من يقول ذلك ؟ اين الدليل على أن ذلك عادل ؟ أنت تعتمد على نظام الاشياء الطبيعي ، على قانون الظواهر ، ولكن هل يوجد نظام وقانون يبر ر أن أقف أنا الانسان ، الحي ، المفكر ، فوق هوة وانتظر أن تردم ، أو تمتلىء بالطمي . في الوقت الذي قد استطيع فيه أن أقفز واجتازها ، أو أن أبني جسرا فوقها ؟ على كل حال ، باسم ماذا انتظر ؟ أنتظر حتى تضمحل قوة الحياة فينا ، بينما يجب أن نعيش ، ونريد أن نعيش » (ص ٣٠٢ / الجزء ٨ / المؤلفات) .

استشف الكاتب القادر على فهم العصر ، وأبوابه المفتوحة والمغلقة ، نهوض السنوات ١٩٠٠ ، بداية انكسار الحياة القديمة ، والحركة فيها . فذهب أبطاله الحالمون بالحياة الجديدة ، الى لقاء تلك الحياة . واذا حملوا

www.alkottob.com

الرمز ، أكثر مما حملوا الوضوح ، فذلك لان صورتهم في الواقع لم تكن بعد كاملة ، ناضجة . يحس تشيخوف ، في أواخر حياته ، بالانقلاب الاجتماعي المتلامح . ببشائر الحياة الجديدة التي غنى الشوق اليها . ويؤكد أنه يجب أن يكتب عن موضوعات أخرى ، بطريقة أخرى .

ناديا (العروس) وآنيا (بستان الكرز) هما الفتاتان السعيدتان . رمز القوة الشابة التي تتحرك الى صورة اجتماعية جديدة . تخرجان من الحياة القديمة . تحققان حلم الابطال السابقين . كأن السعادة الوحيدة الممكنة ، في تلك الظروف ، هي الخروج على الحياة خروجا ثوريا . رفضها . الانفصال عنها . وذلك رمز . فالسعادة هنا سعادة الاكتشاف ، والتعب . المغامرة العاقلة . لا السعادة الآمنة ، الرحبة ، في حياة سوية ، منتجة ، لم تأت بعد ، ولاتأتي لمجرد رفع السيف على القديمة .

ينزل فأس لباخين ، الرجل العملي ، النشيط ، ممثل البناء البورجوازي ، على بستان الكرز ، على الحياة الماضية الارستقراطية ، وما فيها من جمال وثقافة وكسل وعدم قدرة على القرار الحاسم . ولكن الحياة الجديدة التي تتلامح ، فيها الى جانب لباخين ، المليونير ، تروفيموف ، الثوري .

قال أحد معاصري تشيخوف عن ناديا (العروس) : لاتذهب الفتيات الى الثورة هكذا ، ورد عليه تشيخوف : طرق الذهاب الى الثورة متعددة ! وقد يكون وراء الاعتراض . الخلاف العام بين الطلب المباشر ، المحدد ، بأن يعبر النموذج عن الخطوط الايجابية ، وبين نظرة الكاتب العميقة ، التي تأخذ خطوط النموذج من الواقعي في ذلك الزمن .

البطل الثوري جديد عند تشيخوف . لكنه ليس انعطافة . له جذوره

www.alkottob.com

في التفكير في الحياة الراهنة ، ورفض بؤسها . في قدرة الانسان على الحلم ، وفي شعوره بالمسؤولية عن السعادة العامة .

تعيش ناديا (العروس / الجزء ٨ / المؤلفات) في بلدة تعرض فيها المسرحيات ، ويعزف فيها خطيب ناديا في الحفلات الخيرية . تلبس فيها أم ناديا المجوهرات . وهذه البلدة دون ماء للشرب ، دون مجار . ومع ذلك ، يأكل فيها الناس وقت الأكل ، ويتزوجون ، ويتناقشون . لاينتبهون الى الكسل والتخلف . ومنهم ناديا . حتى يظهر ساشا .

ساشا فقير ، بائس ، ليس جذابا . مريض . لكنه دليل الى شيء جديد . الى طريق لن يمشيها . لاتعدي شخصيته ناديا . تعديها أحلامه وتنجدها . تحس ، منذ البداية ، أن أحلامه عجيبة ، لكنها لاتستطيع أن تفكر فيها (ص ٤٩٠) ساشا هو اتجاه ارضي نحو التغيير .

يكشف ساشا لناديا التناقض بين هدوء الحياة ، وبين حقيقتها . يجعل المرور بها ، دون اهتمام ، مستحيلا . يولع الشعور بها ، يظهر لناديا الخلفية التي لاتنتبه اليها . وراء الصالون المرتب ، وطاولة الأكل ، مطبخ وسخ وخدم مساكين . وراء بكاء أمها على أبطال الروايات ، ومظهرها المتنور ، ومناقشاتها ، كسل امرأة عاشت دون عمل ، مع رجل لاتحبه ، وخدم ينامون على الارض العارية . وربما يكون هذا هو الدور المهم لساشا .

ناديا قادرة على تجاوزه ، كأنها هي من يصل الى ذلك المستقبل . شابة ، قوية ، طموحة ، جميلة ، لاتبدأ الحياة بالزواج والحياة العادية ، بل بالدراسة ، والمدينة والحرية . بشيء لم يكن في حياة الاسلاف .

قيل ان ممثلي الجيل الشاب عند تشيخوف ، ليسوا واضحين ، كاملين . وقد يكون شعورنا أن الابطال التعساء ، أبطال الافق المسدود ،

www.alkottob.com

أكثر حيوية ونضرة ، وأكثر قرب ، من أبطاله الثوريين . وانه عاش معهم ، وعرفهم . لكن تشيخوف أديب واقعي .

لايعطي أبطاله لونا واحدا . يعطي اتجاههم العميق ، لكنه يظهرهم حقيقيين . وربما كان قادرا ، باخلاصه الادبي ، اكثر من ناقديه ، على الشعور بجوانب النموذج المتضاربة . ورغم مايشهد عليه عمله في مسودات (العروس) ، واتجاهه فيها نحو توضيح جدية ساشا ، فالثوري ليس مخططا جامدا ، نهائيا ، وليس تمثالا متقنا ، نظيفا .

ترفيموف (بستان الكرز) طالب ، شاب ، فقير . تحمل في الحياة كثيرا من العذاب ، ويمكن الظن بأنه طرد من الجامعة ، ونفي . حر ، لاسلطة لاحد عليه ، كما يقول ، ولايغريه المال . يفهم أن رانيفسكايا الارستقراطية لم تواجه الحياة مواجهة صريحة . لذلك لاتفهم ان عصر بستان الكرز انتهى . لكن رانيفسكايا ، الشخصية الغنية بالضعف والجمال ، التي تتذوق الحياة والزهر ، تلاحظ النقص في شخصيته . أنه لم يحب حتى الآن ، وأن الانسان لايمكن أن يكون « أعلى من الحب » . وعندما يقول لها : « تعرفين ، أنا اتعاطف معك بكل قلبي . » (ص ٦٤٣ / الجزء ٩ / المؤلفات) ترد عليه : يجب أن يقال ذلك بطريقة اخرى . . فهي تدل على جمود كلماته وعدم قدرته على أن يكون جذابا ، قريبا من الناس . كلماته لاتقال لمن يضيع حياته ، لمن يحس أنه انتهى .

لحظة وداع الحياة الماضية ليست سعادة مجردة ، صافية . فالحياة الماضية صنعها ناس ، وتعودوها . وفيها جانب جميل . وحزن الانسان الذي ينتهي بانتهاء الحياة الماضية ، ولا مكان له في الحياة الجديدة ، حزن شرعي . ومع كل أسى وظلم ذاهب ، يغوص شيء جميل في الحياة القديمة ..

www.alkottob.com

لايتوقف ترفيموف عند هذا . لايشعر بفداحة قص بستان الكرز ، الذي تذكره الموسوعة ، والذي هو أجمل ما في المنطقة . الجمال الذاهب مع بدء الحياة الجديدة ، الذي يبحث عنه الانسان ، ويعيده ، بعد أن تستقر أسس الحياة ، ويصبح البحث عن الماضي بحثا عن التراث والفن والحضارة . وهكذا ، في ترفيموف شيء واقعي يصادف في الثوريين الفجّين . هو شعورهم بالالم الانساني مجردا ، عاما . وانشغالهم به عن التفاصيل ، عن الجمال الارضي . تشيخوف يسبقه ، فيقدس ، بلسان أبطاله ، الشجر والزهر ، الحضارة التي تنتهي اليها الثورات .

يدعو ترفيموف الى ترك بستان الكرز . يرى اشباح العبيد في زهره . رمز الى ضرورة الخروج من الحياة القديمة . وجمود ايضا . فالروح المعذبة التي نحسها في كل ذرة من الأرض في الهواء ، والغابات ، والبحار ، تدعو الى استعادة الجمال الذي ربته من حياتها ، الى تذوقه وصيانته ، والشعور بسحره في الحياة القادمة السعيدة .

لكن ترفيموف استطاع أن يخرج آنيا من التعلق ببستان الكرز كماض في حياتها ، كشيء جميل شخصي ، الى رؤية خلفيته . ثمن الارض الذي دفعه العبيد . مايختفي في الجمال والحضارة من معاناة سواد الناس . وينقلها الى التعلق ببستان الوطن الكبير .

في ثوري تيشخوف ، نظرة واسعة . حب الارض والبؤساء . رؤية حقيقة الحياة الراهنة . والحلم بالبديل الانساني . الرغبة الحارة في المستقبل ، والقدرة على صنعه . وليس فيه القدرة على الشعور ببهجة الحياة ، والقاء النفس على عرضها . يستطيع ذلك ، النموذج الماضي الذي يتمتع بحضارة

www.alkottob.com

ماضية ورخاء مادي ، ولايبتعد عن حياته الشخصية الصغيرة . نموذج رانيفسكايا .

نلاحظ أن غرفة ساشا ، ملأى بالدخان ، غير مرتبة . لايعطي تشيخوف تفصيلا زائدا في قصصه . وهذا التفصيل يعني أن هذا الذي يسعى الى الحياة الجديدة ويقود اليها ، لايجعل حياته في غرفته جميلة ، نظيفة ، صورة عن الحياة البديلة ، منافية للراهنة .

لكننا يجب أن نذكر أننا هنا في مطلع القرن . وأن هذه الصورة عن ثورى هو الضحية ، وهو الحلم . هو التمهيد . والمهم أن يوجد ، وأن يشير . وأن نذكر أن الثوري ينمو في الحركة ، من خلال التغيير . وينضج مع الظروف الناضجة والتجربة المكتملة .

عدالة تيشخوف الادبية جعلته يظهر الجوانب السلبية في ترفيموف ، كما أظهر الايجابي في لباخين ، العملي النشيط ، الذي يستطيع ان يحفظ الود القديم ، وأن يكون مخلصا لتطور البورجوازية . كما جعله يظهر في رانيفسكايا الكسل ، والضعف . والحلم هربا من الحياة لاتوجها الى غيرها . والجانب الجميل ، الشعور بجمال بستان الكرز ، والقدرة على الحب والشفقة ، والعجز عن التلاؤم مع الحساب المعاصر التجاري . وطبيعي أن هذه الرؤية الفنية لايمكن ان تعجب من يحارب البورجوازية في صعودها ، ويواجهها في المجال العملي مواجهة قاسية ، حاسمة .

رؤية السعادة عند تشيخوف ، رؤية انسانية ، حضارية . فيها انسجام غنائي بين الشجر والانسان والحياة الاجتماعية . فيها العمل الشاعري الذي يتفتح فيه الانسان . والحب الذي يتفتح مع العواطف الاخرى .

ليست السعادة مزاجا فرديا ، أو قدرة شخصية على الفرح . بل هي

www.alkottob.com

تفاعل بين الانسان وبين الحياة العامة . قدرة الحياة العامة على تفتيح النشاط المنتج في الانسان ، وعلى أن تعطيه المكان الذي يطمح اليه ويستحقه . الشرط الاجتماعي الذي يمس جذور حياة الانسان .

يتجاوز الحب مع أكثر العواطف الحميمة الشخصية التصاقا بالانسان ، كونه علاقة بين رجل وامرأة . ويرتبط بالوعي ، واكتشاف التناقضات الارضية ، وضرورة جعل الحياة الاجتماعية انسانية .

وربما هذا سبب ، من أسباب كثيرة ، تجعل أدب تيشخوف يعيش في الزمن الانساني ، تراثا ينتقل من جيل ألى جيل ، ويشعر كل جيل أنه قريب منه ، معبر عنه . فقد أمسك الطموح ، والحزن . عدم الرضا بالراهن ، والتعلق بالقادم ، الذي يجمع بين الأجيال . أظهر التعاطف الرقيق ، الحساس ، مع كل حياة انسانية مهدورة . كأنه يلمس مانحزن عليه في حياتنا . المهدور الذي لانستطيع انقاذه ، والمهدور الذي نبذره .

www.alkottob.com

الفهرس

ملامح واقعية في قصص زكريا تامر ٥

محمد الماغوط - أصالة ، وأزمة ٤٣

قراءة في قصص عبدالله عبد ٨٣

غادة السمان في كوابيس بيروت ١٠٥

السعادة المستحيلة عن تشيخوف ١٢٧

الفهرس ١٤٩

www.alkottob.com

تم الكتاب

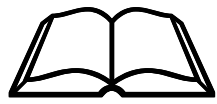

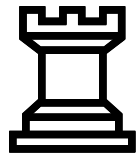

حصريا
نشر عالإنترنيت لأول مرة من أعمال
Passerby_intime@yahoo.com
مرهف

إهداء خاص لمنتدى أخوية
www.akhawia.net

كتب سحبتها بالسكينر ونشرتها حصريا على الإنترنيت لأول مرة:

1- الخطة والتكتيك في الشطرنج	عبد الرحمن محفوظ محمد
2- نهايات الشطرنج	محمد راشد الأمعري
3- الشطرنج علما وفنا	عبد الرحمن محفوظ محمد
4- أسس المناورات في الشطرنج	دي موف – مترجم للعربي
5- دخان – رواية	ايفان تورغينيف
6- الرواية في الأدب الروسي	تأليف د. سامي الدروبي
7- حديث الهيل (ديوان شعر بدوي) قصة حمدة	للشاعر عمر الفرا
8- طريقة سريعة لسحب كتاب بالسكينر	من إعدادي
9- ملف مشاكل تنزيل الكتب من الإنترنيت	من إعدادي
10- حماية برامج الكمبيوتر ونزع الحماية	مجموعة باحثين
11- علم النفس المعرفي	د. الزغول

وهي موجودة في الرابط التالي:
http://www.4shared.com/dir/8770305/f2fbc29a/sharing.html
مكتبتي في موقع فورشيرد

☆ ★ ☆

The End

www.alkottob.com